# السُنن الإلهية وحركة النهضة

اسم الكتاب: **السُنن الإلهية وحركة النهضة**

اسم المؤلف: **حسني محمد العطار**

**مؤسسة نافذ للبحث والطباعة والنشر**

الطبعة: **الأولى 1442هـ-2021م**



تنسيق الكتاب: **د. نافذ الجعب**

تصميم الغلاف: **أ. عبد الرحمن أبو نار**

مكتبة الفكر والثقافة الإسلامية

الكتاب الثالث

# السُنن الإلهية

## وحركة النهضة الإنسانية

دراسةً – وعرضاً

الأستاذ: حسني محمد العطار

فلسطين – رفح

1442هـ – 2021م

مطبعة نافذ
0599920845

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ
فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ،
هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾

(آل عمران: 137-138)

# إهداء

إلى من يهمهم أمر هذه الأمة

إلى كل من يبذل دمه ونفسه ووقته

لنهضة الإسلام والمسلمين

أُهدي هذا العمل المتواضع

# المقدمة

الحمد لله رب العالمين، القائل في محكم التنزيل ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً**﴾ (الأحزاب: 70-71).

والصلاة والسلام على سيد المرسلين، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

مما أنعم الله تعالى به على الإنسان بعد الخلق، أن هداه لما يصلحه، ويصلح حياته على ظهر هذه الأرض، فمنحه الفطرة والعقل والإرادة والحرية، وهيأ له كل أسباب النجاح والرقي، والارتقاء، أسباباً مادية ومعنوية، إذا أخذ بها الإنسان، كل الإنسان نجح وارتقى،

وتقدم، وأقام من العمران ما وسعه أن يقيم، وشيد من منارات الحضارة ما أمكنه علمه وجهده من ذلك.

ولله في هذا الكون بكل ما فيه من مخلوقات، وفي الإنسان على الخصوص سنناً لا بد وأن تتحقق، إنها السنن الإلهية والكونية، وهي سنن ثابتة، شاملة، مطردة لا بد من تحقيقها، من خلالها، وفي إطارها تتمكن الأمم من فرض سيطرتها وإعلاء مكانتها، لهذا نجد للأمم الغابرة بقايا آثار حضارة شيدوها وأقاموها، فلما اختلت قيم الإيمان عند هؤلاء الأمم انهارت حضاراتهم.

وكأن الله سبحانه يريد أن يرشدنا إلى أن الحضارة، أي حضارة لا تقوم ولا تستمر في بنيانها بعيدة عن القانون الرباني، المتحكم في كل شيء، والذي لا يخرج من إطاره ذرة ولا أصغر من ذلك، وفيما يخصنا نحن كمسلمين، مؤمنين في أساسها هي روح الإيمان بالله تعالى.

لقد جعل الله هذه السنن في الكون والإنسان، كي يسير وفق قوانينها، وبالتالي يأخذ بأسباب الرقي والتقدم والازدهار، وإن خالف هذه السنن والقوانين تعرض للهلاك والدمار، وصفحات تاريخ الإنسانية مليء بمثل هذه الأحداث، سلباً، أو إيجابا، والعاقل والسعيد من اتعظ بغيره.

والقرآن الكريم هو النبع الأصيل لإمداد الحياة بروافد الفكر المهتدي بنور الوحي الإلهي، فياض بالعلوم والمعارف، زاخر بروائع الحقائق، يستثيره الباحثون بالبحث والنظر فيعطيهم من خزائن حكمته ما تشاء عقولهم المسلمة من هديه وإرشاده.

ففيه من ذكر لهذه السنن بأنواعها المتعددة، والمتنوعة، ما يدفع الباحثين والدارسين للكشف عن لثامها، والتعامل معها والاستفادة من طرحها.

والقرآن الحكيم في حديثه عن آيات الله الكونية يقرن الأرض بالسماء، ثم يتحدث عن شيء من عوالم السماء إبرازاً لما فيه من سنن الله وآيات ودلائل قدرته، ينتقل إلى الحديث عن الأرض وألوان الحياة فيها، وسيد الأرض الذي سخر الله له ما فيها من منافع هو الإنسان، لأنه صاحب السلطان على كل ما سخر الله له من شي، ومن هنا كان لابد من اختصاص هذا الإنسان بنوع من السنن الإلهية، يقيم عليها بناء حياته بدأ وانتهاء.

وواقع المسلمين في العصر الحديث من التخلف الحضاري، والتدهور الاجتماعي إنما يُعزى إلى جهلهم بالسنن في الآفاق وفي المجتمع، ولا سبيل إلى التقدم والرقي والنهوض واستئناف الدورة الحضارية إلا بفهمها وفقهها، وحسن التعامل معها، وإتقان تسخيرها واستثمارها، واستشراف مستقبلها.

لهذا أحببت أن أكتب في هذا الموضوع: "السنن الإلهية وحركة النهضة الإنسانية"، متحدثاً عن السنن الإلهية في الكون والإنسان، ودفعها للإنسان للرقي والعمران.

**أهداف البحث:**

1 . بيان حقيقة السنن وأهمية دراستها .

2 . بيان خصائص السنن الإلهية.

3 . ذكر بعض أنواعها .

4 . طرح نماذج من السنن التي ذكرت في القرآن الكريم.

**أسئلة البحث:**

1 . ما أهمية السنن، وما أهمية دراستها ؟

2 . ما خصائصها ؟

3 . ما أنواعها ؟

4 . ما علاقتها بالتطور وبناء الحضارة الإنسانية؟

5. كيف تناول القرآن الكريم ذكرها وعرضها ؟

**الجديد في هذه الدراسة:**

حاولت قدر الجهد أن أُضمن دراستي ما تناثر من أفكار عند من سبقني في الكتابة في هذا الموضوع. وذلك فيما يتعلق بالتعريفات اللغوية، والاصطلاحية، كذلك فعلت في أمر أهمية دراسة السنن، وأنواعها ، وعلاقاتها بالرقي والحضارة، حاولت الربط بين السنن الكونية، والسنن الإلهية، والسنن الاجتماعية.

ثم قمت بعرض نماذج من السنن الكونية، والإلهية، والاجتماعية التي ذكرها القرآن الكريم.

وأنا لا أزعم أنني جئت بجديد؛ أكثر من الترتيب والتنظيم والجمع والتنسيق، وحسبي ذلك وأنا المتطفل على موائد العلم والعلماء .

**ويتكون البحث من ستة مباحث، وهي كما يلي:**

**المبحث الأول: حقيقة السنن الإلهية.**

**المبحث الثاني: أهمية دراسة السنن الإلهية.**

**المبحث الثالث: خصائص السنن الإلهية.**

**المبحث الرابع: سنن النهضة والرقي الإلهية.**

**المبحث الخامس: سنن الهلاك والدمار الإلهية.**

**المبحث السادس: مواصفات ومميزات السنن الإلهية.**

**الخاتمة:** وفيها ذكرت ما انتهيت إليه في دراستي.

في نهاية دراستي أدعو الله أن يقبلها مني خالصة لوجهه الأكرم، وأن يغفر لي ولوالديّ ولمشايخي بكل حرف كتبته.

ثم أن تنال القبول من أستاذي الذي أحترم وأُكبر فيه أدبه، وتواضعه، وعلمه، وحسن علاقته بطلابه.

حسني محمد العطار

# المبحث الأول

# حقيقة السُنن الإلهية

أتناول في هذا المبحث الحديث عن حقيقة السنن في اللغة والاصطلاح، ثم أبين علاقة السنن الإلهية بالسنن الكونية، والسنن الاجتماعية، منهياً بتعليق بعض الباحثين الذين تناولوا هذا الموضوع بالدراسة من قبل.

**أولاً: السنن في اللغة:**

السنن جمع سُنة، وتأتي في اللغة على عدة معانٍ، منها: الطريقة: يقال استقام فلان على سنن واحد. والسيرة. والمثال. والمنهج والشريعة. والإتباع. والعادة. والاقتداء. والحكم. والقصد: سنن الرجل قصده وهمته.

وسِنن بكسر السين تعني السكة التي يحرث بها الأرض، وتعني أيضاً الغفلة ولنعاس، ومنه قوله تعالى: ﴿**لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ (البقرة / 255) .

والسُنن بالضم تعني دائرة الوجه، أو الصورة والطبيعة، ومن الله: حكمه، وأمره ونهيه، وسنن الطريق: نهجه وجهته.

وسنة الله: أحكامه وأمره ونهيه، وسننها الله للناس، بينها، وسن الله سنة: أي بين طريقاً قويماً، والسنة السيرة: حسنة كانت أو قبيحة[1] . ومنه حديث النبي: **(من سن سنة حسنة)**[2]، وسنة النبي: طريقته التي كان يتحراها .

وسنة الله تعالى تقال لطريقة حاكميته.

[1] انظر: ابن منظور: لسان العرب، 255/13، والرازي: مختار الصحاح، 133/1، والفيروز آبادي: القاموس المحيط، 1207.
[2] أخرجه مسلم في صحيحه: ح (1017)، كتاب العلم، 2059/4.

**وعرف ابن تيمية السنة:** السنة العادة في الأشياء المتماثلة، ولفظ السنة يدل على التماثل، فحكم الله في الأمور المتماثلة لا ينقص ولا يتبدل ولا يتحول[1].

## ثانياً: السنة في الاصطلاح:

تختلف تعريفات السُنة عند الاصطلاحيين، كل حسب العلم الذي يتبعه، وإن كان الجميع يتفق على أنها سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وبالتالي تعددت تعريفات السنة عندهم، وهي كما يلي:

1. **عند المحدثين: عرّفها القاسمي:** هي ما أثر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية، أو سيرة سواء كان قبل البعثة أو بعدها[2].
2. **عند الأصوليين: عرفها الآمدي:** أما في الشرع فقد تطلق السنة على ما كان من العبادات نافلة منقولة عن النبي صلى

[1] ابن تيمية: جامع الرسائل، 55/1.
[2] القاسمي: قواعد التحديث، ص64.

الله عليه وسلم، وقد تطلق على ما صدر عن الرسول من الأدلة الشرعية مما ليس بمثله ولا هو معجز ولا داخل في المعجز، وهذا النوع هو المقصود بالبيان ها هنا، ويدخل في ذلك أقوال النبي وأفعاله وتقاريره[1] .

3. **السنة عند الفقهاء: عرفها السباعي:** السنة هي الطريقة المسلوكة في الدين من غير افتراض ولا وجوب[2] .

4. **عرفها الشيخ ناصر العقل:** إنها تعني الدين الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، من العلم والعمل والهدى، ومفهومات تتفرع عن هذا المفهوم، كالسنة مقابل القرآن الكريم، والسنة بمعنى المشروع، وخلافة البدعة والسنة

---

[1]. الآمدي: الأحكام في أصول الأحكام، 127/1.
[2]. السباعي: السنة ومكانتها في التشريع، ص48.

بمعنى الإتباع، والسنة بمعنى أصول الدين والاعتقاد السليم، والسنة بمعنى الحديث والسنة بمعنى النافلة[1] .

5 . **عرفها ابن رجب:** هي الطريقة المسلوك فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه هو وحلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال وهذه هي السنة الكاملة[2] .

أما السنن اصطلاحا ، فلها علاقة واضحة بالمعنى اللغوي، والمراد بها اصطلاحا هنا : "ما سنّه الله في الأمم من وقائعه، وأصل السنن جمع سنة: وهي الطريقة المستقيمة" .

والسنةُ هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بِنظيره الأول؛ ولهذَا أَمر بِالاعتبار وقال: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ**

1. ناصر العقل: مفهوم أهل السنة والجماعة، ص47.
2 ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص249.

عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . (سورة يوسف/ 111 .

**والسُنن كما عرّفها سيد قطب** رحمه الله هي: "النواميس التي تحكم حياة البشر وفق مشيئة الله الطليقة، وأن ما وقع منها في الماضي يقع في الحاضر إذا أصبحت حال الحاضرين مثل حال السابقين" [1]

ويمكن أن نختار من بين التعاريف المتعددة للسنن بأنها: "منهج الله تعالى في تسيير هذا الكون، وعمارته، وحكمه، وعادة الله في سير الحياة الإنسانية، وعادته في إثابة الطائعين وعقاب المخالفين طبق قضائه الأزلي على مقتضى حكمته وعدله" [2].

---

[1]. قطب: في ظلال القرآن،480/1.
[2]. الخطيب: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، 27.

ولعل هذا التعريف يصف منهج الله تعالى في تسييره لأمور الخلق، وأن هذا المنهج يطبق وفق علم الله تعالى وحكمته دون أن يلزم الله تعالى بشيء، ولكن هذا المنهج يعتبر علامات كلية يستنير بها المسلم في حياته ليكون على بينة ونور .

**فيما يرى الدكتور عبد الكريم زيدان** في كتابه السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، أن السنن الإلهية هي: "الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة"(1)

**وجه العلاقة بين السنة الكونية والسنة الاجتماعية:**

هناك فرق دقيق بين مفهومي السنن الكونية والسنن الاجتماعية:

فالسنن الكونية: هي التي تتعلق بالأشياء والظواهر والأحداث المادية والطبيعة غالباً .

[1]. زيدان: السنن الإلهية في الأمم، ص 13.

**أما السنن الاجتماعية:** فهي تلك السنن التي تتعلق بسلوك البشر وأفعالهم ومعتقداتهم وسيرتهم في الدنيا، وفق أحوال الاجتماع والعمران البشري، وما يترتب على ذلك من نتائج في العاجل والآجل.

ولكن لو أمعنا النظر، وأطلنا النفس في البحث؛ لوجدنا أن سنن الله في المجتمعات البشرية امتداد طبيعي لسننه في المجالات الكونية، لأنها قوانين واحدة، وأسباب واحدة، ونواميس واحدة، تصدر عن إرادة واحدة، وتنبثق عن مشيئة واحدة.

**يقول الدكتور عبد الكريم زيدان:** "وكل الفرق بين الأحداث الكونية المادية وبين الأحداث الاجتماعية هو أن أسباب الأولى واضحة بينة مضبوطة، إذا عرفناها أمكننا الحكم بدقة على نتائجها وميقات هذه النتائج.

أما أسباب الأحداث الاجتماعية فهي بمختلف أنواعها من سياسية واقتصادية وحضارية وعمرانية، وغلبة ونصر وهزيمة

وخذلان، إلخ، أسباب دقيقة وكثيرة، ومتنوعة، ومتشعبة ومتشابكة، وقد يعسر على الكثيرين الإحاطة بها تفصيلاً، ولكن مع هذا العسر يمكن للمتأمل الفاحص الدقيق أن يعرفها .

**التعريف المختار لسنن الله الاجتماعية:**

والتعريف المختار قريب من بعض المعاني اللغوية للسنة وهو أن يقال: سنة الله الاجتماعية هي العادة المألوفة والطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للناس بناء على أعمالهم في حال طاعة الله تعالى، وحال عصيانه، وما يترتب على ذلك من نتائج، وثواب وعقاب، في المعاش قبل المعاد .

ويحيط بها علما، كما يمكنه الجزم بحصول نتائج معينة بناء على أسباب معينة وإن لم يمكنه الجزم بميعاد حصول هذه النتائج،

ويتضح من هذا أن كتب اللغة وأهل التفسير توافقوا على أن السنة هي الطريقة، فإذا ما أضيف إليها لفظ الجلالة لتصبح سنة الله،

صار معناها طريقة الله تعالى، ويخلص من ذلك أن سنة الله تعالى أي طريقته سبحانه في تسيير أمور الكون وفق قانون عام فيه معنى التماثل في النتائج إذا تماثلت المقدمات.

**فالسنن الإلهية** إذن المرادة هنا هي أحكام الله تعالى الثابتة في الكون وعلى الإنسان في كل زمان ومكان، فقد شاء الله رب العالمين أن يجري أمر هذا الدين، بل أمر هذا الكون على السنن الجارية لا على السنن الخارقة؛ وذلك حتى لا يظن جيل من أجيال المسلمين ويتقاعس ويقول: لقد نصر الأولون بالخوارق ولم تعد الخوارق تنزل بعد ختم الرسالة وانقطاع النبوات، وإن المتدبر لآيات القرآن الكريم يجدها حافلة بالحديث عن سنن الله تعالى التي لا تتبدل ولا تتغير، ويجد عناية ملحوظة في إبراز تلك السنن وتوجيه النظر إليها .

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن كلمة سنة وردت في ثمانية عشر موضعاً في القرآن الكريم، منها على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ **قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ** ﴾ (سورة الأنفال / 38) .

وهذه السُنة أو السُنن التي يلفت القرآن النظر إليها، إنها بيان عاقبة المكذبين ومداولة الأيام بين الناس، لتمحيص السرائر وامتحان قوة الصبر على الشدائد، واستحقاق النصر للصابرين ومحق المكذبين الكافرين.

**يقول الدكتور رمضان زكي:** ومن خلال الإطلالة السريعة في آيات السُنن في القرآن الكريم يظهر الآتي:

**أولاً:** أن لفظة سنة وردت في القرآن الكريم أحياناً مفردة (سنة) وأحياناً مجموعة، سنن.

**ثانياً:** أنها أحياناً تأتي مضافة إلى الله تعالى: ﴿ **فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ (سورة فاطر / 43)، وأحياناً مضافة للضمير العائد على الله: ﴿ **وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً** ﴾ (سورة الإسراء / 77)، وأحياناً تضاف إلى

غير الله: ﴿ **لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ (سورة الحجر / 13)، وقد تأتي غير مضافة: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ** ﴾ (سورة آل عمران / 137).

**ثالثاً:** أنها وردت فيما نزل قبل الهجرة وبعدها (المكي والمدني)، مثل: الحجر والإسراء والكهف وفاطر وغافر وآل عمران والنساء والأنفال والأحزاب والفتح.

**رابعاً:** أن ورودها غالباً ما يكون ضمن الحديث عن الصراع بين الحق والباطل والكفر والإيمان، وصدود الكفر أمام نور الإيمان وأساليب الباطل أمام ضوء الحق الناصع.

**خامساً:** إنها قد ترد عقب بيان جزء من المنهج التشريعي كما ورد ذلك في سورة النساء عقب الحديث عن أمر الزواج ومتعلقاته.

**سادساً:** أنها تأتي بمعنى العقوبة النافذة والقدر المحتوم[1].

---

[1] انظر: رمضان زكي: مفهوم السنة الربانية، ص17.

# المبحث الثاني

# أهمية دراسة السنن الإلهية

إن النظر والتأمل، ودراسة السنن الإلهية يعتبر فريضة شرعية، وفي نفس الوقت ضرورة اجتماعية حياتية.

فريضة شرعية لأن الآيات القرآنية دعت إليه وأمرت به، وحثت عليه لأجل الاعتبار بمن خلوا، والتفكر في آثارهم، ونحن نعلم أن السعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيما وقف عنه قال: " السعيد من وعظ بغيره " [1].

وهي ضرورة لحياة الناس ومستقبل أيامهم، خصوصاً المسلمين منهم.

[1] . أخرجه مسلم في صحيحه: ح (2645)، كتاب القدر، 148/6.

وهكذا نجد في نهاية كل قصة من قصص القرآن الكريم إشارة للاحقين: ﴿ وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينْ ﴾ ليبقى القرآن في عطائه الدائم.

**يقول الإمام محمد عبده:** إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سنناً يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علماً من العلوم المدونة لتستديم لما فيها من الهداية والموعظة على أجمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون بها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحمل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم، إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها[1].

وتظهر أهمية دراسة السنن الإلهية في الكون حينما نجدها بنفس سماتها الثابتة وصفاتها تلتقي مع سنن الله الجارية على البشر، لهذا لا

[1] انظر: رشيد رضا: تفسير المنار، 114/4.

عجب أن نقرأ قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد ﴾ (سورة فصلت / 53) .

**فالعلم بسنن الله تعالى:**

1 . من أعظم الوسائل لكمال العلم بالله تعالى، وصفاته، وأفعاله .

2 . أنه مثير لكوامن الخشوع والتقى عند الإنسان .

3 . يجعل الإنسان أكثر قدرة على التعامل مع سنن الكون وقوانينه الثابتة، لهذا معرفة السنة لا تقل قيمة عن معرفة قوانين المادة والتعامل معها .

4 . معرفة السنن الإلهية تعرفنا بأسباب نهوض الأمم وانهيارها .

5 . أن هذه السنن لا تحابي ولا تجامل، فكما مضت في السابقين تمضي في اللاحقين .

6 . أهمية الأخذ بالأسباب في جميع المجالات .

**يقول الدكتور زكي:** هناك خلاصات كثيرة وعصارات من أحوال الأمم والشعوب تحدث عنها القرآن الكريم، فما أفاد المسلمون منها قليلاً ولا كثيراً، يحدثهم القرآن عن أمم فنيت لأسباب وتحللت قواها وضاع مجدها لأنها لم تأخذ بأسباب البقاء، ونرى المسلمين يقومون بنفس الدور الذي قام به السابقون من الأمم الماضية دون أن يتعظوا، واتبعوا سننهم ونسجوا على منوالهم على الرغم من تشريح القرآن الكريم لأسباب البقاء والفناء للأمم والشعوب في آيات كثيرة، وما خبر الملأ الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت عنا ببعيد[1].

7. أهمية التغيير في حياة الأفراد والشعوب: ﴿**اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ (سورة الرعد / 11).

---

[1] زكي: مفهوم السنن الربانية، ص26.

8. أهمية التمسك بالحق والثبات عليه: ﴿**وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ**﴾ (سورة الأعراف / 17)، ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ (هود / 117) .

9. أهمية الاعتصام بالإيمان بالله وقدرته: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ (سورة الأعرف / 96) .

**يقول الدكتور محمد صادق عرجون:** والعلم بسنن الله تعالى الكونية العامة طريق إلى العلم بسنن الله الخاصة في المجتمع البشري، ومعرفة تقلبات الحياة به، ومعرفة تطوره، ومعرفة عوامل هذا التطور، ومعرفة مدى سلطان السنن الإلهية على هذا المجتمع، لأن العلم بهذه السنن عامة وخاصة، هو القيم على توجيه الحياة وتعريفها بما وضع الله في خصائصه من طاقات لتصوير الظواهر الكونية ودوافعها القريبة

أو البعيدة، وهذا العلم بالسنن الإلهية هو الذي وضع المجتمع الإسلامي في مكان الصدارة من الحياة يوم أن كان العلم بأوسع معانيه هو القائد لهذا المجتمع، فطاف آفاق السماوات والأرض نظاراً باحثاً يستشف الحقائق الكونية وراء السجف، يكشفها له القرآن ويهديه إلى أصولها[1].

## ضرورة دراسة السنن وفهمها:

**يقول أيمن المغربي:** إن عدم دراسة السنن الإلهية دراسة مستوعبة وإغفال علماء الأمة وحكمائها لتفصيلها وبيانها للأمة على فترات طويلة من تاريخها، أورث الأمة آثاراً سيئة تمثلت في اعتقاد الكثيرين بعدم ثبات السنن وإصرارها، وعدم النظر في علة الأشياء وأسبابها، والظن بأن المقدمات توصل إلى النتائج يتعارض مع الإيمان بقدرة الله الذي شرع المقدمات وقدر أن تكون موصلة للنتائج، وأن

[1] عرجون: سنن الله في المجتمع، ص6.

التوكل يناقض ويتعارض مع قضاء الله وقدره، فكان العدول عن كشف السنن وتوجيه البحوث القرآنية لدراستها والاستفادة من الوقوف على معطياتها مما أورثنا التأخر الحضاري الذي نعيشه ونعاني منه، في الوقت الذي نظن أننا أكثر إيماناً ويقيناً مما مضى، فأوقعنا ذلك الوهم في دائرة التأخر والخسارة[1] .

[1] أيمن المغربي: السنن الإلهية في تغيير المجتمعات، ص89.

# المبحث الثالث

# خصائص السنة الإلهية والكونية

تعددت خصائص السنن الإلهية والكونية، والاجتماعية، إلا أنني في هذا المبحث سأتحدث عن أهم هذه خصائص، وهي كما يلي:

**أولاً: الربانية:**

وهذه الخاصية هي أهم خاصية للسنن الربانية، مصدرها هو الله تعالى، فهي مرتبطة به، وليس لأحد من الخلق أي تدخل فيها، سلباً أو إيجاباً، لهذا نجد أن أغلب ورود لفظ السنة أو السنن إما أن يكون مضافاً إلى لفظ الجلالة صراحة، أو الضمير العائد على الله: ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ (سورة الفتح / 23).

أما حين إضافتها لغير الله تعالى، من الرسل أو الأنبياء أو غيرهم، فإن إضافتها إليهم على اعتبار تعلقها بهم، وإنما هي سنة الله فيهم.

**يقول الدكتور توفيق الغلبزوني**: والقرآن الكريم حينما يسبغ الطابع الرباني على السنن الكونية والاجتماعية التي تحكم عالم الشهادة، يريد أن يؤكد الصلة الوثيقة بين العلم والإيمان، لأن اكتشاف انتظام هذه السنن والقوانين وعملها ينبغي أن يقود إلى الإيمان بالله عز وجل، لا إلى الطغيان والاستغناء عنه سبحانه، فعندما يقرأ الإنسان صفحات الكون أو صفحات التاريخ والاجتماع، ينبغي أن يقرأها باسم الله الخالق: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ (سورة العلق / 1)، إن التوكيد على مصدر السنن والقوانين الذي هو البارئ سبحانه وتعالى، هو الذي يعطيه قيمته الرئيسة، وميزته الكبرى، فهو وحده مناط الثقة في أنه المنهج المبرأ من الجهل والهوى والانحراف في التفسير

هذه الخصائص المصاحبة لكل عمل بشري، والتي نراها مجسمة في جميع المناهج التاريخية والاجتماعية التي صاغها البشر.

## ثانياً: الثبات:

من أوضح وأكثر خصائص السنن الإلهية خاصة الثبات، فلا تتغير ولا تتبدل، ولا تتأثر بعوامل الزمان أو المكان، وأن عادة الله لا يملك أحد أن يقلبها، أو يبدلها.

والحكمة من ذلك أن تنضبط الموازين وتستقر معايير الحكم على الأشياء والمواقف والأحداث والرجال والأمم، وقد جاء النص القرآني واضحاً في ذلك: ﴿ **وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ (سورة الأحزاب / 62).

**يقول الإمام الطبري:** ولن تجد لسنة الله التي سنّها في خلقه تغييراً، بل ذلك دائم للإنسان، جزاءه من الإحسان وللإساءة والكفر والعقاب والنكال[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿ **فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ (سورة فاطر / 43)، **يقول الإمام الرازي:** حاصل العلم بأن هذه السنة لا تبديل لها بغيرها، وحاصل العلم بأن هذه السنة تخص صاحبها ولا تتحول عنه إلى غير مستحقها[2].

وبثبات القانون الإلهي تثبت النفس وتطمئن، ويحيطها الاستقرار الذي يكون توطئة لمعرفة ما لكل امرئ وما عليه، فيعتبر المبصر ويحذر المخطئ، ويتحسس كل إنسان أن تسير به قدماه، ويحجم أو يقدم مستنداً إلى ظنه، لمصيره ومآله في دنياه وأخراه[3].

---

[1] انظر: الطبري: جامع البيان عن تأوي آي القرآن، 93/26.
[2] الرازي: التفسير الكبير، 32/26.
[3] أيمن المغربي: السنن الإلهية، ص59.

فمن سنن الله أن ينصر المؤمنين على الكافرين متى حققوا أسباب النصر وبذلوا ما بوسعهم: ﴿ **وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً، سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ (سورة الفتح / 22-23).

أي هذه سنة الله وعادته في خلقه ما تقاتل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر فرفع الحق ووضع الباطل كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعددهم، وكثرة المشركين وعددهم[1].

ومن سننه تعالى أن الرسل إذا كذبتهم أقوامهم فإن الله لا يعذبهم ما دام الأنبياء بين أظهرهم، فإذا أخرجوهم عذبهم الله: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ** ﴾ (سورة الأنفال / 33).

[1] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 193/4.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: ولقد جعل الله هذه السنة جارية لا تتحول، لأن إخراج الرسل كبيرة تستحق التأديب الحاسم، وهذا الكون تصرفه سنن مطردة لا تتحول أما اعتبار فردي، وليست المصادفات العابرة هي السائدة في هذا الكون، إنما هي السنن المطردة الثابتة، فلما لم يرد الله أن يأخذ قريشاً بعذاب الإبادة كما أخذ المكذبين من قبل لحكمة علوية لم يرسل الرسول بالخوارق، ولم يقدر أن يخرجوه عنوة بل أوحى إليه بالهجرة ومضت سنة الله في طريقها لا تتحول[1] .

## ثالثاً: الشمول والعموم:

وهذه الخاصة تعني أن السنن الإلهية تشمل كل البشر، ولا تفرق ولا تحابي، يسري حكمها على الجميع دون تمييز، بغض النظر عن

[1] انظر: قطب: في ظلال القرآن، 2246/4.

جنسياتهم أو مواطنهم أو أعمارهم، أو أديانهم، غير مقتصرة على فرد دون آخر، ولا قوم دون آخرين.

ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ (سورة آل عمران / 137-138)، فالآية دالة على أن سنة الله جرت في الذين من قبلنا من الأمم السابقة، فليتفكر وليتدبر أصحاب العقول والقلوب، ومن هذه السنن أن جعل العاقبة للمتقين المؤمنين، والدائرة على الظالمين المكذبين.

**يقول المغربي:** ولولا ثبات السنن واطرادها وعمومها لما كان معنى في ذكر قصص الأمم السابقة مطلب الاعتبار بما حل بهم، ولكن لما كان ما جرى لهم وعليهم يجري على غيرهم إذا فعلوا فعلهم، حسن ذكر قصصهم وطلب الاعتبار والاتعاظ بها[1].

---

[1] المغربي: السنن الإلهية في تغيير المجتمعات، 62.

وسنة الشمول والعموم من مقتضى عدل الله حكمته، فلو انحرفت هذه السنة، فشملت قوم دون قوم لصار ذلك مدعاة إلى الركون وبالتالي عد الاطمئنان إلى عموميتها وشموليتها، ولكن لأن سنة الله عامة وشاملة فهي ترسخ الاطمئنان والثقة.

ودراسة التاريخ خير شاهد على ذلك، فإننا نجد أن ما ينطبق على أمة أخذت بالسنن ينطبق على أية أمة أخرى أخذت بتلك السنن، وأنه لا تحابي ولا مجاملة، حتى المسلمون عندما يتخلفوا عن سنن الله تعالى يصيبهم ما أصاب غيرهم ممن تخلف عن هذه السنن.

**يقول ابن تيمية:** إن الله تعالى ينصر الدولة العادلة، ولو كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة، فالباغي يصرع في الدنيا، وإن كان مغفورٌ له مرحوماً في الآخرة، وذلك لأن العدل هو

نظام كل شيء، فإذ أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها عند الله تعالى من خلاق[1].

والحاصل من صفة العموم للسنن الإلهية هو أن أي مجتمع أخطأ أو انحرف متنكباً عن سنن القانون الإلهي لقي جزاء خطئه أو انحرافه وتنكبه، ولو كان خيرا المجتمعات، وحسبنا في هذا ما دفعه الصحابة ثمناً لخطئهم في غزوة أحد وهو ما سجله القرآن عليهم بوضوح في قوله: ﴿ **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** ﴾ (سورة آل عمران / 165).

والمقصود أنه لا محاباة ولا تمييز ولا استثناءات في اتصاف السنن والقوانين الإلهية بالعموم والشمول، وفي ذلك تحقيق لسابغ عدل الله وحكمته: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ (سورة يونس / 44).

---

[1] ابن تيمية: مجموعة الفتاوى، 124/4.

**لهذا نجد الشهيد سيد قطب** يعقب على قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً**﴾ (سورة النساء / 123-124).

**يعقب سيد قطب** عليها قائلاً: إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولاً إلى الأماني، إنه يرجع إلى أصل ثابت وسنة لا تتخلف، وقانون لا يحابي، قانون تستوي أمامه الأمم، فليس أحد يمت إلى الله سبحانه بنسب ولا صهر، وليس أحد تخرق له القاعدة، وتخالف من أجله السنة، ويعطل لحسابه القانون، إن صاحب السوء مجزي بالسوء، وصاحب الحسنة مجزي بالحسنة، ولا محاباة في هذا ولا مماراة[1].

[1] قطب: في ظلال القرآن، 762/2.

**رابعاً: الاطراد:**

معنى الاطراد والتكرار، فأينما وجدت الظروف المناسبة مكاناً وزماناً وأشخاصاً وأفكاراً فسنن الله لا تتخلف فهي مطردة، ولقد قص الله علينا في القرآن الكريم الكثير من قصص الأمم السابقة، وما حل بها من العذاب المتنوع والمتعدد، كل هذا من أجل أن يتعظ الخلق مما أصاب الأقوام الذين سبقوهم، ولولا اطراد هذه السنن لما اعتبر منها معتبر، لهذا لا عجب أن قرأ قوله الله تعالى : ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ،وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ،إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ**﴾ (سورة هود / 101-103).

ولقد فصل القرآن الكريم بكثير من الآيات التي تثبت معنى الاطراد، وما نجده من بعض الناس الذين يحرفون ما نزله الله بهم حين خروجهم عن سنن الله تعالى، إلى كونها ابتلاءات أو رفع درجات أو تكفير سيئات، إلا أن الحق أنها سنة الله تعالى أصابت المتخلفين عن سننه، وآيات القرآن تبين لنا أن سنن الله في خلقه وكونه إنما تنفذ على سنن حكيمة وطرائق قويمة، فمن سار على هذه السنن ظفر ونجح ولو كان ملحداً كافراً، ومن تنكبها خسر ولو كان أتقى المتقين، فسنن الله لا تتبدل ولا تتخلف ولا تتحول.

والناظر في حياة المسلمين اليوم، وحياة أهل الغرب الكافر، يجد مثالاً وضحاً لسنن الله تعالى تتحقق أمام ناظريه، المسلمون تخلفوا عن سنن الله فلحقت بهم الهزائم والفقر والمرض والجهل، وبقوا في ذيل الأمم والغرب الكافر أخذ بأسباب هذه السنن فتبوأ مكانته المتقدمة

في هذه الدنيا، وأصبح السيد الذي لا ينازعه أحد، ويلحق به كل شعب وأمة تأخذ بأسباب الثورة والعلم والاجتهاد.

**خامساً: حتمية الوقوع والنفاذ:**

من عدل الله تعالى أن سننه لا تتخلف، فهي جزء من قضائه جل وعلا، وذلك تصديقاً لقوله: ﴿**إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ (سورة آل عمران / 47)، وهذا الأمر مترتب على قوله: ﴿**فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾ (سورة فاطر / 43)، فهذا يقضي أن هذه السنة متحققة لا محالة، فهي نتيجة لمقدمة، متى وقعت المقدمة تبعتها النتيجة مباشرة دون تأخير.

ونحن نعلم علماً ناتج عن العقيدة بأن قضاء الله محقق لا راد له، والسنن الإلهية هي جزء من قضاء الله تعالى، ولا راد لهذا القضاء، والبشر بكل ما عندهم من قوة وإمكانات وجبروت لا يستطيعون

صرفاً ولا تحويلاً، ولا حيلة دون وقوع سنن الله تعالى وتحقيقها ونفاذها .

فكل القوى أمام قوة الله لا شيء: ﴿ **وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ (سورة الروم / 6) .

فسنن الله بهذا نافذة لا تتخلف، فحيث ما وجد مقدمات الأمر كانت نتيجته متلازمة معه، بهذا قص الله تعالى علينا القصص المتنوع في القرآن، قصص الأنبياء، والأمم ، والأفراد، والمؤمنون، و الكافرون، المنافقون، لتكون لنا عبرة وعظة، فنسير على طريق المؤمنين لننجو ونتجنب طريق الكافرين المجرمين فلا نهلك كما هلكوا، بل الله تعالى يريد منا أن نأخذ بأسباب الحيطة والحذر حتى لا يصيبنا ما أصابهم، لهذا قال تعالى محذراً ومنبهاً: ﴿ **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه ،وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه** ﴾ (سورة الزلزلة / 7–8) .

ومفاد هذه الآية أن الجزاء والنتيجة متعلقان بالمقدمة، لأن الجزاء بحسب سنة الله تعالى أثر طبيعي للعمل، لا يتخلف عنه، فسنة الله ثابتة ومطردة وعامة غير مقتصرة على فرد دون فرد، ولا قوم دون قوم، ولولا ثباتها واطرادها وعمومها لما كان معنى في ذكر قصص وأخبار الأمم السابقة وطلب الاعتبار بما حل بهم، ولكن لما كان ما جرى عليهم يجري على غيرهم إذا فعلوا فعلهم، حسن ذكر قصصهم وطلب الاعتبار والاتعاظ بها[1] .

[1] ابن تيمية: مجموعة الفتاوى، 207/4.

## المبحث الرابع

# أنواع السنن الإلهية في قيام النهضة والعمران

تعددت أنواع السنن الإلهية، والسنن الكونية، والباحث في القرآن الكريم يجد أن كلا النوعين من السنن بينهما من التناغم والتجانس الشيء الكبير، وكلاهما يدوران في فلك واحد .

**والسنن الكونية:** هي الظواهر الكونية التي أسس عليها الكون من سماوات وأرض ومجرات وبحار، وهي ما أراده الله تعالى بقوله: **﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾** (سورة فصلت / 53) .

اشتملت الآية الكريمة على كلا النوعين من السنن: الآفاق، والأنفس.

**أما السنن الإلهية:** فهي النظام الإلهي في الأفراد والأمم والشعوب والمجتمعات.

لهذا نجد أن قوانين الآفاق التي تحكم هذا الكون بكل ظواهره تخضع لثبات واطراد وشمول وهيمنة ربانية، لا تبديل ولا تحويل، ونفس هذه القوانين ماضية في حياة وأفعال البشر في هذه الحياة، فمصدر هذه القوانين الكونية وتلك الإلهية في الأمم والأفراد واحد وهو الله سبحانه وتعالى.

فهذه القوانين الكونية وتلك الإلهية في الأمم والأفراد واحد وهو الله سبحانه وتعالى.

فهذه القوانين الكونية والبشرية بينها ارتباط وتماسك واتساق وتنسيق عجيب.

**يقول الدكتور رمضان زكي:** ذلك أن الكل أثر فعل الله تعالى وقدرته، سواء في الجانب الكوني أو الجانب البشري، ولقد حرص

القرآن الكريم على ترسيخ هذه الفكرة في أذهان أتباعه فحرص على أن يدركوا الترابط الموجود بين قوانين الله تعالى وقوانينه في سلوك البشر، فسنته تعالى في المجتمع جانب من جوانب الفكرة القرآنية التي بثها الله تعالى في آيات هذا الكتاب المبين نظاماً اجتماعياً مترابطاً إلى جانب سنن الله العامة في الكون التي تصور فلسفة القرآن في فهم الحياة، كما تصور حكمته في نعوت الكمال لله تعالى خالق الحياة، وفلسفة القرآن تجعل من الكون كله حقيقة واحدة طوى فيها خالقها دلائل وجوده وبراهين وجدانيته وآيات قدرته وعلمه وحكمته، ووكل إلى العقل البشري الكشف عن هذه الدلائل، والبراهين بما أودع فيه من قوة إدراكية غائصة، وبما أمده به من عون فتهديه إليها ، وهذا المعنى هو خلاصة وعد الله تعالى لهذا العقل بالكشف عن آيات الله في الكون[1] .

[1] زكي: مفهوم السنن الربانية، ص110.

إذن هذا الكون بكل ما فيه، ومن ضمنه الإنسان، سرت فيه سنن الله تعالى، وسوف أقتصر في حديثي عن السنن التي لها دور في التمكين في حياة البشر، والتي تلعب دوراً في النهوض والرقي، على المستوى المادي والمستوى الروحي والفكري.

**وفيما يلي سأتحدث عن أهم هذه السُنن:**

## أولاً: سُنة التغيير:

هذه السنة من السنن الهامة في حياة البشر، وخصوصاً في طريق التمكين، والتغيير أول ما يبدأ، يبدأ من عند الإنسان، البشرية، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ** ﴾ (الرعد / 11).

فهذه سنة ثابتة تجري على كل الخلق، كل الناس الشرقي والغربي، والمسلم والكافر، المتعلم والجاهل، وفي كل الأزمان، وفي كل الأماكن، لهذا اتبعها الله تعالى بقوله في موضع آخر: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ**

**مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** (الأنفال / 53)، لهذا يجد المتتبع لحركة التاريخ، وخصوصاً تاريخ المسلمين، أنه إذا لم يكن هناك تغيير لما في النفوس فلا يمكن أن تتغير الأحوال، ولا يمكن أن تتغير الحياة، وهذه سنة ثابتة، وارتباطها بالتمكين في حياتنا كمسلمين واضح غاية الوضوح، ذلك أن التمكين لا يمكن أن يتأتى في ظل الأوضاع الحالية للأمة الإسلامية، لهذا كان ضرورياً أن يكون هناك تغيير، فكان التغيير الجزئي في بعض بلداننا العربية والإسلامية.

أما حين استسلام الأمة ورضاها بالمهانة والمذلة، وسيطرة الظلمة، والفساد المستشري في كل ناحية من نواحي الحياة فلا تمكين.

لهذا فالمنهج الإسلامي منهج تغيير، ولا يقبل أن يتعايش مع الواقع الفاسد، بكل أنواع الفساد، فساد العقيدة، وفساد الأخلاق، وفساد القيم، وفساد العلاقات، فساد القوانين المنظمة لحياة المجتمع، وحينما

تحدث الله عن التغيير بين سبحانه أن التغيير هنا تغيير اجتماعي لا فردي، وهي سنة عامة في كل المجتمعات، وهذا التغيير يستلزمه أمور على درجة من الأهمية منها [1]:

1. العقيدة السليمة.
2. القاعدة الصلبة التي تأخذ غيرها للتغيير.
3. الزمان والوقت الكافي حتى تنضج الولادة عن واقع جديد .
4. فهم الواقع للمجتمع وما يحيط به من مؤثرات.

**يقول د.عبد الكريم زيدان** تعليقاً على قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا** ﴾، يقول: أي لم يكن شأنه تعالى ولا مقتضى سننه العامة في خلقه أن يغير نعمة ما أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأحوال التي استحقوا بها تلك النعمة، فنعم الله تعالى على الأقوام والأمم منوطة ابتداءً ودواماً بأخلاق وصفات

[1] د.محمد امحزون: سنة التغيير، مقال.

وعقائد وعوائد وأعمال تقتضيها، فما دامت هذه الأشياء لا صفة بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق وما يترتب عليها من محاسن الأعمال غيّر الله عندئذ ما بأنفسهم وسلب نعمته منهم فصار الغني فقيراً والعزيز ذليلاً والقوي ضعيفاً، هذا هو الأصل المطرد في الأقوام والأمم وهو كذلك في الاطراد .

وسنة الله في تغيير النعم تجري على الجماعة المسلمة، فما دامت متمسكة بشرع الله في عملها والاعتصام بحبل الله في وحدتها فإن نعم الله عليها بالتأييد والنصر ودفع الأذى عنها باقية فإذا غيّرت ذلك تتقيد بشرع الله في عملها وفرطت في وحدتها فإنها تسلب من نعم الله بالتأييد لها بقدر ما ضيعته من موجبات هذه النعم[1] .

[1] انظر: زيدان: السنن الإلهية، ص 129.

**خلاصة هذه السنة:**

أن الأمة إذا رغبت أن يتغير حالها إلى الأحسن، لزمها أن تغير ما هي عليه، وتسعى في هذا الأمر سعياً حثيثاً، لأن التغيير لا يأتي عن طريق الخوارق والمعجزات، أو قدراً إلهياً يهبط من السماء على رؤوس الناس، إنما يأتي عن طريق بذل الجهد والعرق والاجتهاد والتوكّل على الله وإخلاص النية له تعالى.

## ثانياً: سُنة التدافع:

والمقصود بها الصراع بين الحق والباطل.

قال تعالى: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ (البقرة / 251)، وسنة التدافع تكون بموافقة أهل الحق والخير لأهل الباطل والشر والإفساد في الأرض، وذلك لتحقيق الصلاح والاستقرار على الأرض، فقد أوضح الله سبحانه وتعالى أن من آثار هذه السنة الإلهية منع الفساد في

الأرض، وأن هذا التدافع بين الحق والباطل هو نعمة على البشرية، إذ لو ترك الفاسد يشيع الفساد في الأرض ويستضعف الصالحين، وهم لا قوة لهم لتهدمت كل القيم وكل الأشياء الجميلة في هذا الكون، حتى أماكن العبادة والتدافع بين الحق والباطل في حقيقته إنما هو صراع بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل، أي بين المؤمنين وغيرهم، ومن هنا يحدث بينهم الصراع والتعارض والتزاحم ثم ينتج عنه التدافع بين الفريقين.

وهذا التدافع حتمي بين الفريقين كونهما ضدان، والمنطق يقول أن الضدان لا يجتمعان، ولأن وجود أحدهما نفي للآخر، ومن نتيجة ذلك أن تحدث المزاحمة وطرده ودفعه، العمل على إزالته، وإن لم يتمكن من ذلك فالعمل على إضعافه، ومنعه من التأثير وامتلاك القوة، فمن سنة الله أن الحق والباطل لا يمكن أن يعيشان في سلم وأمان مع بعضهما البعض، فلا بد أن يكون لأحدهما الغلبة على الآخر.

ومن النصوص الدالة على سنة التدافع قول الله تعالى: ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ (الشورى / 24)، قال الزمخشري في تفسيرها: ومن عادة الله أن يمحو الباطل ويثبت الحق بكلماته أي بوحيه أو بقضائه[1] .

**وقال الرازي:** من عادة الله إبطال الباطل وتقرير الحق[2] .

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (يونس / 81)، يقول صاحب تفسير المنار: وهذه قاعدة عامة مبينة لسنة الله في تنازع الحق والباطل، والصلاح والفساد، ويدخل فيه سحر سحرة فرعون فإنه باطل وفساد، أي لا يجعل عمل المفسدين صالحاً[3] .

ومن سنة التدافع نصر الله للمؤمنين، فهي سنة لا تتخلف، قد تتأخر، لكنها حتمية الوقوع، ومن النصوص الدالة على ذلك قوله

1 . الزمخشري: الكشاف، 222/4.
2 . الرازي: التفسير الكبير، 168/27.
3 . رشيد رضا: تفسير المنار، 468/11.

تعالى: ﴿ **وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً، سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ (الفتح / 22-23)، ومنها قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ** ﴾ (الأنعام / 34)، ومنها قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ** ﴾ (غافر / 51)، يقول ابن كثير عن الآية الأخيرة : وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه، أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم، وقال السدي لم يبعث الله عز وجل رسولاً قط إلى قومه فيقتلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلونهم فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن جعل

ذلك بهم في الدنيا ، قال السدي : فكانت الأنبياء والمؤمنين يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها[1] .

إذن سنة التدافع وسنة الصراع بين الحق والباطل سنة كونية قدرية قائمة في كل زمان ومكان، والسبب في ذلك هو عدوانية الشر، إن الشر من طبيعته العدوان والاعتداء، أنظروا إلى زماننا مع أن الأمة الإسلامية على ما هي فيه من الضعف والهوان والتفرق والتمزق، مع ذلك نجد الأمم تتكالب عليها أمم الكفر وهذا يدل على أن الشر في طبيعته عدوانياً . [2]

**يقول الدكتور محمد عمارة:** تلك هي سنة التدرج، وهذا هو قانونها الحاكم في كل عوالم الخلق والإصلاح والتغيير، وذلك هو منهاجها

[1] . ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 83/4.
[2] . الحاشدي: السنن الإلهية، مقال، منبر علماء اليمن.

في الخروج بأمتنا من واقعها الفكري والثقافي والإعلامي الراهن إلى حيث الإصلاح الإسلامي المنشود، مع ضرورة:

- صدق النية في الإصلاح الكامل قدر الطاقات والإمكانات، وليس مجرد" الترقيع" والاكتفاء بسياسة مجاورة الصلاح للفساد والتعايش بينهما بدعوى وضع النماذج المختلفة أمام الأذواق المختلفة؛ فإصلاح الأذواق هو هدف من الأهداف الرئيسية للإصلاح. وعلينا أن نميز بين صدق النوايا في التدرج الإصلاحي وبين النوايا الكاذبة التي تتحدث عن "التدرج"، بينما يضع أصحابها النموذج الإسلامي في" الأدراج". فبالنية الصالحة وبالعزم الصادق وبالتخطيط الراشد والتنفيذ الواعي –وفق سنة التدرج–تتحقق آمال المصلحين في الإصلاح.
- عدم الاكتفاء بالنوايا الصادقة في الإصلاح الكامل، وإنما العمل المتواصل على تقديم النماذج الثقافية والإعلامية الصالحة (تقديم

المثال الإسلامي)، وتنمية مساحة هذا "المثال" باستمرار ليتوارى مع نموه النموذجُ الفاسد والسلبي في الثقافة والإعلام.

- تقدير الضرورات بقدرها، وذلك حتى لا تنفلت معايير الضرورات في التعايش مع نماذج من الثقافة السلبية، والحرص على أن تكون هناك موازنات بين السيئ والأسوأ والأقل سوءًا في المادة التي يتم التعايش معها مؤقتاً.
- كما يجب إعمال قاعدة "سد الذرائع" إلى الأسوأ فإن بالإمكان إعمال قاعدة" فتح الذرائع "إلى الأقل سوءًا، إذا أفضى التعايش المؤقت معه إلى الصلاح الأكثر والأعم.

مع الحرص على أن تكون هناك منابر ثقافية وإعلامية خالصة الإسلامية تمثل مراكز للتوجيه والتعريف بالنموذج الإسلامي، ودائمة الإشعاع على سائر الساحة الثقافية والفضاء الإعلامي. فضرب

الأمثال وانعطاف قطاعات واسعة من الجماهير نحو هذه النماذج هو من أفعل الوسائل في تنمية الإصلاح بميادين الثقافة والإعلام.

## ثالثاً: سنة التدرج:

التدرج سنة من سنن الله في خلقه، وهي من السنن المهمة للمجتمعات الراغبة في التمكين، وهي للأمة الإسلامية أكثر أهمية، ومن واجب الأمة مراعاتها .

والتدرج من الدرج، وهو الصعود في المرتبة درجة درجة، والاستدراج أن يعطي الله العبد كل ما يريده في الدنيا ليزداد غيه وضلاله وجهله وعناده فيزداد كل يوم بعداً عن الله تعالى[1] .

**يقول الحاشدي:** ومراعاة سنة التدرج في التمكين لهذا الدين يعني: أن تتدرج الأمة في الأصعب، ومن الهدف القريب إلى الهدف البعيد، ومن الخطة الجزئية إلى الخطة الكلية، وهكذا لا يكون تهور يريد تحقيق

[1] انظر: الباشا: الكافي، 439، وأبو البقاء الكفوري: الكليات، ص113.

كل شيء في لحظة واحدة، فهذا مخالف لسنة الله الكونية، ومخالفة صريحة لسنة الله في خلقه وفي كونه، ومنطلق هذه السنة: أن الطريق طويل لا سيما في هذا العصر الذي تنمرت فيه الجاهلية، و أخذت أهبتها واستعدادها، كما أن الشر والفساد صار ضارب الجذور في أعماق الأمة، فلو قطعت الطريق في النفس من ثقل الحمل وضخامة التبعة لكان الانقطاع فيكون كمثل المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، وبالتالي القعود أو على الأقل الفتور والتواني الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى رد فعل أشد وأعنف، ومنطلق هذه السنة أيضاً كذلك، هدي الإسلام في دعوة الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتأسيس دولته الإسلامية، دولة النبي صلى الله عليه وسلم، ولقد بدأت الدعوة متدرجة تسير بالناس سيراً متدرجاً حيث بدأت في مرحلة الاصطفاء والتأسيس[1].

[1] انظر: الحاشدي: السنن الإلهية، مقال، منبر علماء اليمن.

وقد نبه الله تعالى إلى هذه السنة مراراً في القرآن الكريم حين الحديث عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وكان بإمكانه أن يخلقها في لحظة، وكذلك خلق الإنسان أطواراً وكان بإمكانه أن يقول له كن فيكون، وكذلك النبات، وغيرها وغيرها .

المتأمل فيها جميعاً يجد أن الله تدرج فيها من البدء حتى الكمال والنضج، وذلك وفق سنة الله الحكيمة، سنة التدرج.

كذلك لو نظرنا إلى التشريع الإسلامي وفي العبادات لوجدنا هذه السنة ظاهرة للعيان، فالصلاة تدرج الله في فرضيتها، كانت في أول الدعوة على هيئة دعاء صباحاً ومساءً، ثم تدرجت حتى انتهى بها المطاف إلى ما هي عليه الآن من عدد معين وحركات مخصوصة وكلمات مخصوصة.

روت السيدة عائشة رضي الله عنها: فرضت الصلاة ركعتين، ثم هاجر النبي صلى الله عليه وسلم، ففرضت أربعاً، ونزلت صلاة السفر على الأول[1].

والصيام فرض أولاً على التخيير، أياماً متفرقة، ثم كان فرض رمضان.

وأيضاً الزكاة: فرضت في مكة مطلقة بدون تحديد نصاب أو مقادير، حتى فرضت في المدينة فيما بعد وحددت مقاديرها وأنصبتها.

وهكذا في أمر الجهاد وغيرها.

[1]. أخرجه البخاري في صحيحه: ح (3935)، كتاب مناقب الأنصار, باب: التاريخ، 1203/3.

أما فيما يتعلق بالتشريع، افعل أو لا تفعل، فإن التدرج فيها أوضح، وهذا من يسر الإسلام وسماحته، فتشريعاته سلباً وإيجاباً إنما تتوافق الفطرة الإنسانية والسنن الكونية فيه.

ومن أوضح الأمثلة على هذه السنة (سنة التدرج)، تحريم الخمر.

والإسلام ينظر إلى سنة التدرج على أنها من الأهمية بمكان، واجب العاملين أن ينتهوا إليها خلال رحلة الدعوة والعمل لهذا الدين، فالبعض يحسب أن التمكين لهذا الدين إنما يتحقق دفعة واحدة بنين عشية وضحاها، وأن تغير الأمة يكون في طرفة عين، فيستعجلون النتائج دون اعتبار للظروف والمتغيرات، والملابسات المحيطة، بل ربما دون استعداد وأخذ بالأسباب.

ومن أهم ما يلزم معرفته للعاملين في حقل الدعوة لهذا الدين، مراعاة ما يسمى بفقه الأولويات، فلا نقوم ما حقه التأخير ولا نؤخر ما

حقه التقديم، ثم لا نترك الأصول لنعمل بالفروع، والجزئيات قبل الكليات والعمل بالمختلف وترك المتفق، والعمل بالنافلة وترك الفريضة.

وهذه السنة (سنة التدرج) ما أحوجنا إليها في حياتنا السياسية ونظامنا القضائي وعلاقتنا المهنية ومعاملاتنا المالية.

**يقول الحاشدي:** وإذا كانت الأمة الإسلامية تتطلع اليوم إلى تمكين الله لها فلا بد أن تراعي في عملها سنة التدرج، فما هدم لا يمكن أن يبنى في أيام، مع أن الهدم أسهل من البناء، فعليها أن تتبنى سياسة النفس الطويل والصبر الجميل، فتصبر على البذرة حتى تنبت، وعلى النبتة حتى تورق، وعلى الورقة حتى تزهر، وعلى الزهرة حتى تثمر، وعلى الثمرة حتى تنضج وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

## رابعاً: سنة الابتلاء:

والابتلاء في الأصل الاختبار والامتحان، يقال: بلوته وابليته وابتليته، والمعروف أن الابتلاء يكون في الخير والشر معاً من غير فرق بين فعلهما، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ .

وبلوته: اختبرته، وأبليت فلاناً إذا اختبرته، وسمي التكليف بلاءً من أوجه:

**أحدها:** أن التكاليف كلها مشاق على الأبدان فصارت من هذا الوجه بلاءً.

**الثاني:** أنها اختبارات، لهذا قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ .

**والثالث:** أن اختبار الله تعالى للعبد تارة بالمسار ليشكر، وتارة بالمضار ليصبر، فصارت المحنة، والمحنة جميعاً بلاء[1] .

[1] انظر: الأصفهاني: المفردات، 61، والمعجم الوسيط، 70/1.

**وخلاصة سنة الابتلاء:** الاختبار والامتحان في الشدة والرخاء، وهي المشقة التي تنزل بالمرء لغرض الاختبار والامتحان، وقد استعمل القرآن الكريم لفظ الابتلاء بهذا المعنى كثيراً، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ** ﴾ (البقرة / 155)، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ (آل عمران / 154).

وسنة الابتلاء للمؤمنين سنة لا تتخلف، وذلك ليختبرهم ويمحص إيمانهم، ويعلم صبرهم، ويرى منهم ما يحب تعالى، ثم يكون بعد هذا الابتلاء التمكين.

والناس في الابتلاء درجات، كل على حسب إيمانه وقربه من الله تعالى، قال عليه الصلاة والسلام: (أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل،

يبتلى الرجل على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة)[1].

ولقد ابتلى الله نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلى الله عليهم أجمعين، فصبروا على ابتلاءاتهم، فمكن الله لهم.

**يقول الحاشدي:** الابتلاء هو الذي يمحص الناس ويميز الخبيث من الطيب، وذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عوداً وأقواهم شكيمة، فهؤلاء هم الذين يصلحون لها والصبر عليها وهم عليها مؤتمنون[2].

هذا الابتلاء فيما يخص المؤمنين، وتاريخ المؤمنين من لدن آدم حتى يومنا هذا، مليء بالصور الناصعة الدالة على مدى صبرهم وتحملهم في سبيل دعوة الإيمان، ومواجهة الكفر والطغيان.

[1] أخرجه ابن ماجه في سننه: ح (4023)، كتاب الفتن، باب: الصبر على البلاء، 1334/2.
[2] الحاشدي: السنن الإلهية، مصدر سابق.

أما عن ابتلاء الكافرين، فإن من السنن الربانية أن يبتليهم بالبأساء والضرّاء، انتقاماً لهم وردعاً عن كفرهم وضلالهم، قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ، ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ (الأعراف / 94-95) .

يقول الرازي: إن سنة الله تعالى في الأمم التي كذّبت رسلها أن الله تعالى أخذها بالبأساء وبالضرّاء، أي بالشدة في أنفسهم وأبدانهم، وأرزاقهم وأموالهم، وقد فعل الله تعالى ذلك بهم لكي يتضرعوا، فلم يفعلوا ذلك فأخذهم بالرخاء ليختبرهم فيه، أي حول حالهم من الشدة إلى الرخاء ومن المرض والسقم إلى الصحة والعافية، ومن الفقر إلى الغنى، ليشكروا على ذلك ويرجعوا إلى ربهم بالتوبة، والانقياد، فلم يفعلوا ذلك، ثم ابتليناهم بالضرّاء والسرّاء ليتضرّعوا وينيبوا إلى

الله فلم ينفع فيهم لا هذا ولا هذا، فأخذناهم بالعقوبة بغتة أي على بغتة وعدم شعور منهم أي أخذناهم فجأة[1].

وللابتلاء الخاص بالمؤمنين حكم وفوائد كثيرة، منها:

1. به يرفع الله منزلة العبد المؤمن.
2. به تكفير للذنوب وحط للخطايا وتنقية للنفوس.
3. إظهار الناس على حقيقتهم.
4. إعداد المؤمنين وتربيتهم من خلال المعاناة والعبر.
5. فيه تحقيق العبودية لله تعالى في السرّاء والضرّاء.

[1] الرازي: التفسير الكبير، 183/14.

## خامساً: سنة الأخذ بالأسباب:

سنة الأخذ بالأسباب هي أكثر سنة من السنن الإلهية في عوامل النهضة والتفوق والنجاح.

والسبب كما يقول ابن منظور: كل شيء يتوصل به إلى غيره[1]، لهذا ورد ذكره عدة مرات في سورة الكهف: ﴿ **وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً، فَأَتْبَعَ سَبَباً** ﴾ (الكهف / 84-85) .

لهذا قال الزمخشري: السبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة[2] .

والسبب قد يكون مادياً، وقد يكون معنوياً .

فالمادي هو شيء يستعمله الإنسان من الأدوات المادية بكل أنواعها وأشكالها .

والمعنوية: كالعلم والمعارف والإيمانيات العقائدية .

[1] ابن منظور: لسان العرب، 43/1.
[2] الزمخشري: تفسير الكشّاف، 74/3.

وقد نص القرآن على كلا الأمرين، قال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ** ﴾ (البقرة / 22)، فهذا من الأسباب المادية.

وقال تعالى: ﴿ **إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً** ﴾ (الأنفال / 29)، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ (الأعراف / 96)، ومن الأمور الواجب العلم بها أن الأسباب والمسببات كلها من فعل الله تعالى وحكمه، فهو الخالق لها، ولولاه لما صار هذا الشيء سبباً لغيره ولا صار هذا الغير مسبّباً عنه، فكلاهما يعمل بموجب سنة الله تعالى، ولا منافاة بين الأخذ بالأسباب وبين الإيمان بالقضاء والقدر، فلا يجوز اعتماداً على القدر أن نتكل ولا نأخذ بالأسباب، بل إن من توابع الإيمان بالقضاء والقدر الأخذ بالأسباب.

روى الإمام علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخضرة، فنكّس فجعل ينكث بمخصرته ثم قال: "ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة، إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة، فقال رجل: يا رسول الله: أفلا يمكث على كتابنا ونوع العمل؟، فقال: من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، فقال: اعملوا فكل ميسر إما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى** ﴾ (الليل / 5-7).

يقول ابن تيمية: إن الله تعالى أمر الناس بالدعاء والاستغفار وبغيرهما من الأسباب المؤدية إلى مسبباتها من تفريج الكروب وغفران الذنوب وتحصيل المقاصد، ومن قال أن لا أدعو ولا أسأل الله تعالى ولا أستغفره، اعتماداً على الخطأ، كان مخطئاً، لأن الله تعالى جعل الدعاء ونحوه من العبادات أسباباً تنال بها مغفرته ورحمته وهداه ونصره، وإذا قدّر الله للعبد خيراً يناله بالدعاء أو بغيره من الأسباب لم يحصل ما قدره له بغير هذا السبب من الدعاء وغيره، وما قدّره الله وقضاه وعلّمه من أحوال العباد وعواقبهم فإنما قدره بأسباب تقع فيقع ما ارتبط بها من مسببات، فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب والله خالق الأسباب والمسببات[1].

كذلك من الأمور الواجب العلم بها، أن الأخذ بالأسباب لا يتنافى مع التوكّل على الله تعالى، بل إن التوكّل جزء من الأخذ

---

[1] ابن تيمية: مجموعة الفتاوى، 529/8.

بالأسباب المعنوية والروحية، فإن المسلم أثناء أخذه بالأسباب ومباشرتها يعتمد قلبياً على الله تعالى، فتكون ثقته بالله وطمأنينة قلبه إليه في نجاح عمله، وهذا دافع لزيادة العمل والسعي.

هذا في شأن الدنيا وما فيها من عمل وسعي وبناء ونهضة وعمران.

أما شأن الآخرة فهي أيضاً بحاجة إلى الأخذ بالأسباب والسعي، قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً** ﴾ (الإسراء / 19).

قد تأتي المسببات على عكس ما يريد الإنسان، مع أنه قدر جهده أخذ بالأسباب الظاهرة للنجاح، هنا نقول أن لله حكمه في أمره، فأحياناً لا علاقة للأسباب بالنتائج، ومع هذا على المؤمن أن يأخذ بالأسباب المتاحة والمباحة وتبقى النتائج على مسبب الأسباب.

# المبحث الخامس

# سنن الله في دمار الحضارات واندثارها

بينا في المبحث السابق سنن الله في قيام الحضارات ودوامها، وكيف أن أي أمة من الأمم إذا أخذت بهذه السنة وواظبت عليها، شرقية كانت أم غربية، مؤمنة أو كافرة، فإن هذه الأمم ترتقي وتنجح في تشييد الحضارة وقيامها.

وهذه السنن كثيرة، منها سنة بطر النعمة، وسنة الترف، وسنة الذنوب والسيئات، وسنة الاختلاف، وسنة الظلم، وسنة الجوع والخوف، وسنة الاستدراج، وسنة المكر والماكرين، وغيرها إلا أنني سأكتفي بذكر خمس منها، وهي الأكثر خطورة وأهمية وتأثيراً.

وفي هـذا المبحـث سـأتحدث عـن عوامـل وسـنن انهيـار الحضارات، واندثارها، وهي أيضاً كثيرة إلا أنني سأقتصر في الحديث عن أهمها خطراً، وأكثرها إسراعاً في الانهيار والدمار.

## أولاً: سنة الله في بطر النعمة وتغيرها:

**النعمة كما عرفها الدكتور زيدان:** ما يترفه به الإنسان ويتمتع به ويطيب به عيشه وما يصلح به حاله، وما به يسعد، ويدخل في مفهوم النعمة الأشياء المادية كمال ولين العيش والسكن الحسن، كما تشمل النعمة الأشياء المعنوية كالهداية إلى الإسلام[1].

أما عن بطر النعمة فيقول الراغب الأصفهاني: وكفر النعمة أو كفرانها يعني سترها بترك أداء شكرها، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً، والكفر في الدين أكثر استعمالاً، والكفور يستعمل منهما جميعاً[2].

[1] زيدان: السنن الإلهية في الأمم والجماعات، ص127.
[2] الراغب: مفردات القرآن، ص499.

وقد نص القرآن الكريم على سنة الله في بطر النعم حين قوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الرعد / 11) .

**يقول الإمام محمد عبده:** نعم الله تعالى على الأقوام والأمم منوطة ابتداءً ودواماً بأخلاق وصفات وعقائد وعوائد وأعمال تقتضيها ، فما دامت هذه الأشياء لاصقة بأنفسهم متمكنة فيها كانت تلك النعم ثابتة بثباتها حسب سنة الله تعالى العامة في خلقه، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق وما يترتب عليها من محاسن الأعمال غير الله عندئذ ما بأنفسهم، وسلب نعمته منهم فصار الغني فقيراً ، والعزيز ذليلاً، والقوي ضعيفاً ، هذا هو الأصل المطرد في الأقوام والأمم وهو كذلك في الأفراد[1] .

[1] رشيد رضا: تفسير المنار، 37/10.

**ويكون عقاب الله لمثل هؤلاء عقاباً متنوعاً:**

### 1. بالجوع والخوف:

قال تعالى: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ (النحل / 112) .

**يقول الزمخشري:** جعل الله تعالى هذه القرية مثلاً لأهل مكة ولكل قوم أنعم الله عليهم بنعمة الأمن والرزق الوفير الواسع، فأبطرتهم هذه النعمة فلم يقدروها حق قدرها، ولم يشكروا الله عليها، ولم يقوموا بحقها فأنزل الله فيهم نعمته، فليحذر غيرهم أن يفعلوا فعل أهل هذه القرية التي ضربها الله مثلاً لئلا يصيبهم ما أصابها[1] .

[1] الزمخشري: تفسير الكشّاف، 638/2.

### 2. عن طريق إهلاك وزوع البطرين وثمارهم:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ، فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ (سبأ / 15-17) .

من سنة الله أن ينزل عقابه بالبطرين لنعمته من خلال تدمير النعمة التي بين أيديهم، إن كانت زروع أو تجارة أو صناعة، أو بيوت، فيهلكها الله سبحانه وهم يشاهدون ويتابعون، فمنهم ما يتوب إلى الله ومنهم من يستمر في الضلالة.

**يقول ابن كثير:** بين الله تعالى أن ما حل بهم (قوم سبأ) من العقاب إنما هو جزاء كفرانهم النعمة التي أنعم الله بها عليهم، وهل يعاقب إلا الكفور بنعم الله تعالى[1] .

### 3. إهلاك البطرين وتخريب ديارهم:

ومن سنن الله تعالى في البطرين تخريب ديارهم وإهلاكهم، قال تعالى: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ** ﴾ (القصص / 58) .

**يقول الرازي:** وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها أي كانت حالهم كحال أهل مكة في الأمن وخفض العيش والدعة حتى بطروا واغتروا ولم يقوموا بحق النعمة ولم يشكروا الله عليها فدمرهم الله تعالى وخرب ديارهم، فليعتبر كل قوم أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك إذا فعلوا فعلهم في بطر النعمة[2] .

---

[1] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 530/3.
[2] الألوسي: روح المعاني، 98/20.

**يقول الدكتور زيدان:** وسنة الله في تغيير النعم تجري على الجماعة المسلمة، فما دامت متمسكة بشرع الله في عملها والاعتصام بحبل الله في وحدتها فإن نعم الله عليها بالتأييد والنصر ودفع الأذى عنها باقية، فإذا غيرت ذلك فلم تتقيد بشرع الله في عملها وفرطت في وحدتها فإنها تسلب من نعم الله بالتأييد لها، بقدر ما ضيعته من موجبات هذه النعم[1] .

## ثانياً: عقاب الترف والمترفين:

الترف، التنعم، والترفه النعمة، واترفته النعمة أي أطغته، والمترف، المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها، ورجل مترف، موسّع عليه[2] .

ومن معاني الترف والمترف من معاجم اللغة يتبين لنا صفات المترفين والترف كما يلي[1]:

---

[1] زيدان: السنن الإلهية، 129.
[2] ابن منظور: لسان العرب، 360/1.

1 . الترف: بطر النعمة، والمترف هو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش.

2 . الترف: الطغيان بسبب النعمة، والمتعرف هو الذي أطغته النعمة.

3 . الترف: التنعم والتوسع في ملاذ الدنيا، والمترف هو المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها .

والمترفون لا يهتمون إلا بشهواتهم وملذاتهم وجمع المال، ولا يعنيهم من أمر الناس إلا أنهم خدم عندهم، لا يشغلهم شاغل عن هذه المتع، ولا يحسبون لله ولا للآخرة حساباً، قال تعالى: ﴿ **فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾ (هود / 116).

[1] زيدان: السنن الإلهية، 117.

**يقول صاحب تفسير المنار:** أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع إلى الرياسة والسعي لها وجمع الثروة، من أعظم جرائم المترفين تكذيبهم للرسل والأنبياء، وتزعمهم لطابور الصادين عن دين الله، وحمل لواء الحرب والكيد للدين، هذا في كل زمان، ومع كل نبي من الأنبياء، قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ، وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ، قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (سبأ / 34-36).

**يقول الألوسي:** وتخصيص المترفين بالتكذيب لأنهم في الأغلب أول المكذبين للرسل عليهم السلام لما شغلوا به أنفسهم من زخرفة

الدنيا وما غلب على قلوبهم منها فهم منهمكون في الشهوات ومستهينون بمن لم يظفر منها ما ظفروا به[1] .

**وخطورة الترف كما يقول سيد قطب:** إنه يغلظ القلوب، ويفقدها الحساسية، ويفسد الفطرة ويغشيها ، فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر على الهدى وتصر على الباطل، ولا تتفتح للنور[2] .

**نهاية المترفين:**

سنة من سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول، إهلاك المترفين، فيعذبهم في الدنيا قبل عذاب الآخرة، قال تعالى: ﴿ **وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ، فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ، لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ** ﴾ (الأنبياء / 11-13) .

1 الألوسي: روح المعاني، 147/22.
2 قطب: في ظلال القرآن، 85/6.

وهكذا تكون نهاية المترفين الذين أبطرتهم النعمة وأطغتهم الشهوات، فظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم ممن يتبعهم.

والمصيبة الأكبر أن هؤلاء المترفين هم السبب في هلاك أممهم وشعوبهم، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴾ (الإسراء / 16).

**يقول الألوسي:** وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها أي متنعميها وجباريها وملوكها ففسقوا فيها فحق عليها القول فأهلكناها، وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع بإتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد[1] .

[1] الألوسي: روح المعاني، 42/15.

## ثالثاً: الذنوب والسيئات:

**يقول الراغب:** الذنب كل فعل يستوخم عقباه، اعتباراً بذنب الشيء، وجمع الذنب ذنوب لقوله تعالى: ﴿**فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ**﴾[1].

والسيئة الفعلة القبيحة وهي ضد الحسنة، قال تعالى: ﴿**بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً**﴾، والسوء كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية، ومن الأحوال النفسية والبدنية[2].

**ثم يعقب الراغب فيقول:** المعصية تستعمل فيما يستعمل فيه الذنب أو السيئة لأنها تعني الخروج عن الطاعة والأمر[3]، فالمعصية والذنب والسيئة يجمعها جامع الخروج عن طاعة الله فيوصف هذا الخروج بالقبح وسوء العاقبة، وبالذنب والسيئة والمعصية.

---

[1] الراغب: مفردات القرآن، ص181.
[2] المصدر السابق: ص253.
[3] المصدر السابق: ص337.

علاقة الذنوب بهلاك أصحابها:

قال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ**﴾ (الأنعام / 6).

هذه سنة من سنن الله تعالى أن يهلك أصحاب الذنوب بذنوبهم ومعاصيهم.

**يقول سيد قطب:** واضح من هذه الآيات أن الهالكين إنما أهلكهم الله بذنوبهم التي اقترفوها، وفي هذا الإخبار تقرير حقيقة ثابتة وسنة مطردة، أن الذنوب تهلك أصحابها وأن الله تعالى هو الذي يهلك المذنبين بذنوبهم، وأن هذه سنة ماضية، ولو لم يرها أحد في عمره القصير، لكنها سنة ثابتة تخضع لها الأمم حين تغشو فيها الذنوب، فإنها تهلك إما بقارعة من الله تعالى كما كان يحدث في هلاك

الأمم السابقة، وإما بالانحلال البطيء الطبيعي الذي يسري في كيان الأمة وهي توغل في متاهات الذنوب وتحسب أنها في أمان من الهلاك[1] .

فالذنوب هي السبب الرئيسي فيما يصيب الأمم والأفراد من المصائب والعثرات، والنكبات، قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ** ﴾ (الشورى / 30)، ومثله قوله تعالى: ﴿ **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** ﴾ (آل عمران / 165) .

وكما تهلك الذنوب والسيئات أصحابها، كذلك تكون سبباً في هلاك الأمة بأسرها، قال تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا**

[1] قطب: في ظلال القرآن، 129/3.

**فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ** ﴾ (غافر / 21).

يقول ابن كثير: أي أولم يسر في الأرض هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد فينظروا كيف كان عاقبة من قبلهم من الأمم المكذبة بالأنبياء ما حلّ بهم من العذاب مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة وآثاراً في الأرض، فقد شيدوا من البنايات والمعالم والديارات ما لا يقدر هؤلاء عليه، ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم وهي كفرهم برسلهم وما كان لهم من الله من واق أي وما دفع عنهم عذاب الله أحد[1] .

**ما موقف الفرد والجماعة من المصائب:**

**يذكر الدكتور زيدان أن الموقف من المصائب يستلزم أشياء أربعة:**

[1] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 76/4.

1 . العلم بأسباب المصائب، وإرجاع سببها إلى فعل الإنسان، استحضاراً لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ** ﴾ ، وحتى لا يقع الإنسان في متاهات الكفر حين الاعتراض على قضاء الله وقدره، أو اتهام الله بالظلم لما أصابه.

2 . لوم النفس لا الغير، فلا يجوز أن نبرئ أنفسنا من أسباب المصائب التي تقع فينا، ونلقي تبعة ذلك على غيرنا، وقد نص القرآن على مثل هذا الموقف من المسلمين حين قال: ﴿ **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** ﴾ (آل عمران / 165)، ولوم النفس مفيد للإنسان حتى لا يقع في المعصية مرة أخرى، ودافع له للاجتهاد في الطاعات.

3 . تحصين النفس ضد المصائب، بالتزام طريق الشرع، من العبادات والطاعات، وفعل الخيرات واجتناب السيئات، ومخالطة الصالحين وغيرها .

4 . التزام الصبر، فهو من الأمور الضرورية حين وقوع المصائب حتى يتم تجاوزها، وتجاوز آثارها، قال تعالى: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ (البقرة / 155-157) .

## رابعاً: الظلم:

**عند أهل اللغة:** الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وصله الجوز ومجاوزة الحد، والظلمة هم المانعون أهل الحقوق حقوقهم، وتظالم القوم ظلم بعضهم بعضاً[1]

**أما تعريفه الاصطلاحي:** فهو وضع الشيء في غير موضعه الشرعي[2]، والظلم ضد العدل.

وقد ورد ذكر الظلم في القرآن الكريم في عشرات المواضع وبصيغه المتعددة، وهي صريحة في تحريمه، وقد شنع القرآن على الظلم كثيراً، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾ (يونس / 54)، ومنها قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**

[1] ابن منظور: لسان العرب، 266/15.
[2] ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، 95/5.

**﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾** (البقرة / 165) .

من خلال النصوص القرآنية والسنة النبوية نجد أن الإسلام يحرم الظلم تحريماً قاطعاً، وهو لا يفرق فيه بين إنسان وآخر، أو مسلم وكافر، حر أو عبد .

**يقول ابن تيمية:** ولهذا كان العدل أمراً واجباً في كل شيء على كل أحد، والظلم محرماً في كل شيء ولكل أحد أحد، فلا يحل ظلم أحد أصلاً سواء كان مسلماً أو كافراً أو ظالماً[1] .

والظلم من أوخم الذنوب إذا أن عقابها يعجل الله لصاحبه في الدنيا، وذلك لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من ذنب أجدر

[1] ابن تيمية: مجموعة الفتاوي، 351/1.

أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدّخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم"[1].

وكذلك دعوة المظلوم مستجابة لحديث ابن عباس: **(واتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب)**[2].

ومن سنن الله تعالى في الظالمين أن الله يسلط عليهم ظالماً منهم فيذيقهم شر العذاب على ظلمهم لبعضهم البعض، وذلك لقوله تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ (الأنعام / 129).

يقول الرازي: الآية تدل على أن الرعية متى كانوا ظالمين، فالله تعالى يسلط عليهم ظالماً مثلهم، فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم[3].

---

[1] أخرجه أحمد في مسنده: ح (20277) 204/15- 38/5.
[2] أخرجه البخاري في صحيحه: ح(1496)، كتاب الزكاة، باب: أخذ الصدقة من الأغنياء، 446/1.
[3] الرازي: التفسير الكبير، 194/13.

كذلك من سنن الله في الظلم والظالمين أنهم لا يفلحون ولا يفوزون لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأن أعمالهم على قوتها واشتدادها هباء منثور، قال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾ (الأنعام / 135).

**يقول الدكتور زيدان:** والظالمون الذين لا يفلحون يشمل الظالمين لأنفسهم بالكفر بنعم الله أو باتخاذ الشركاء له في إلوهيته كما يشمل الظالمين للناس في حقوقهم، فالسنة لا تتخلف وهي أن الظالمين للناس في حقوقهم، فالسنة لا تتخلف وهي أن الظالمين لا يفلحون فلا ينتصرون ولا يظفرون بمطلوبهم، وإذا كان الفلاح منتفياً عن الظالمين بموجب شرع الله وسنته العادلة، انحصر الفلاح والفوز في أهل الحق والعدل وهؤلاء هم رسل الله وأتباعهم المؤمنون[1] .

[1] زيدان: السنن الإلهية، ص74.

ولقد ورد كثير من الآيات تبين سنة الله في الظالمين وإهلاكهم: ﴿ **فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا** ﴾ ، و﴿ **فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ ، و﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا** ﴾ .

**وهذا الظلم نوعان:**

**الأول** : ظلم الحكام للرعية على نحو يهدر كرامتهم وحقوقهم وينزل فيهم المذلة والمهانة ، إذن سنة الله مطردة في الظالمين، هلاكاً وتدميراً: ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيب، وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾ (هود / 100-102) .

## بقاء الدولة الكافرة العادلة:

قال تعالى: ﴿ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود / 117)، والمراد بالظلم هنا، الشرك والمعنى كما يقول الرازي: أن الله لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح وعدم الفساد[1].

**قال ابن تيمية:** وأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثم ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها من

[1] الرازي: التفسير الكبير، 76/18.

خلاق أي في الآخرة، وإن لم تقم العدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة[1] .

ومن صور هلاك الظالمين خراب ديارهم، وهذا الخراب قد يكون سياسياً أو اقتصادياً، أو عسكرياً، أو اجتماعياً، مما يجعلهم في حالة ضعف دائم، وفقر شديد، وهوان على الأمم الأخرى، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ .

## كيفية الخروج من حالة الظلم:

**يقول الدكتور زيدان:** وإذا كان الظلم سبباً في هلاك الأمة فمن الواجب شرعاً الإنكار على الظالم ومنعه من الظلم وعدم الاستكانة له ولا الركون إليه، وبهذا تنجو الأمة مما قد يحل بها من عقاب أو هلاك

1 ابن تيمية: رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص40.

بسبب الظلم الواقع فيها ، وسبل الوقاية من الظلم وعقابه، تتمثل في الآتي:

1 . الإنكار على الظالم: لقول عليه الصلاة والسلام: **(إن الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم بعقاب منه)**[1] .

فمن الواجب الوقوف أمام ظلم الظالمين ومنعهم من التمادي في ظلمهم، وإلا عم العقاب الجميع .

2 . عدم الاستكانة للظالم: قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ** ﴾ (الشورى / 39)، قال القرطبي: أي إذا نالهم ظلم من ظالم لم يستسلموا لظلمه[2] .

---

[1] أخرجه أحمد في مسنده: ح (30)، 180/1 – 7/1.
[2] القرطبي: التفسير، 39/16.

3 . عدم الركون إلى الذين ظلموا: قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ** ﴾ (هود / 113) .

والمقصود بها مصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومواصفتهم، والرضا عن أعمالهم والتشبه بهم وذكرهم بما يعظم أمرهم.

4 . عدم معاونتهم على أمرهم: حرم الإسلام معاونة الظلمة بأي نوع من أنواع المعاونة، بالقول أو الفعل، لأن أعوان الظلمة ظلمة مثلهم، والحاكم الظالم لا يتمكن من ظلمه إلا بمعاونة الآخرين له.

لهذا تحدث الله عن فرعون وأعوانه: ﴿ **فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ** ﴾ (القصص / 40)، فهنا جعلهم الله جميعاً ظالمين.

5. عدم إعانة الظالم على بقائه: وذلك حتى لا يتمكن من استمرارية ظلمه للناس، ولا يجوز الدعاء له بالبقاء واستمرار حكمه، وذلك للحديث الشريف: **(من دعا لظالم بالبقاء فقد أحبّ أن يعصى الله في أرضه)**[1] .

## خامساً: الاختلاف:

عند أهل اللغة هو عدم الاتفاق على الشيء بأن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخرين في أمر من الأمور[2]، والاختلاف أمر مبغوض في الإسلام، لقوله تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ (آل عمران / 103)، ولقوله صلى الله عليه وسلم: **(عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد)**[3] .

[1] رواه البيهقي في شعب الإيمان: 339/5.
[2] ابن منظور: لسان العرب، 430/1.
[3] التاج الجامع للأصول، 308/5.

والحكمة من تحذير النبي عليه الصلاة والسلام من الاختلاف والفرقة مع أنه أخبر بوقوعه **وقد وقعت الحكمة من ذلك:**

1. ألا يعم الخلاف الأمة كلها .
2. فيه زيادة تصديق بما أخبر عنه النبي مع علمنا أن الإسلام يكره الاختلاف ويحب الاجتماع.
3. أن التحذير منه من جملة أحكام الدين الواجب تبليغها للناس.
4. المسؤولية تقع على الناس بعد التبليغ والانذار، لهذا لا بد من التحذير من الاختلاف.

وقد جرت سنة الله في الأمم أن الاختلاف فيما بينهم سبب من أسباب الهلاك، وذلك تصديقاً لحديث النبي: **(فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا)**[1] .

**قال ابن تيمية:** نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الاختلاف الذي فيه مجد كل واحد من المختلفين ما مع الآخر من الحق، لأن كلا القارئين كان محسناً فيما قرأه، وعلل صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: **(بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا)**[2] .

وليس كل اختلاف مذموم، فاختلاف أهل العلم فيما بينهم ليس مذموماً، بل فيه توسعة على المسلمين، فهو من الاختلاف السائغ، لكن الخطورة تكمن فيمن يقلد هؤلاء الأئمة كالعلماء ويتعصب لآرائهم، ويعادي غيره.

1 أخرجه البخاري في صحيحه: (2410)، كتاب الخصومات، باب: ما يذكر في الأشخاص والملازمة، 719/2.
2 ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، ص35.

وكون الاختلاف المذموم مسبباً لهلاك الأمة، لأن هذا الاختلاف يؤدي إلى فرقة الأمة إلى جماعات متناحرة، يبغض بعضها بعضاً، ويعادي بعضها بعضاً، وبالتالي تضعف الأمة، مما يجعل أعداءها يطمعون فيها .

لهذا كان واجباً على الأمة بجميع مكوناتها أن تجتهد قدر الطاقة في تجنب الفرقة والاختلاف، لأن توقي هلاك الأمة واجب شرعي على الجميع أن يعمل من أجله، وإلا هلك الجميع .

والخلافات في الأمة متنوعة، منها ما كان بين الحاكم ورعيته، ومنها ما كان بين أفراد الأمة فيما بينهم، ومنها ما كان بين العاملين للإسلام .

أما الخلاف الذي يكون بين الحكام والرعية، فالواجب أن يقوم الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقديم النصيحة للحاكم، وأمر الرعية بالصبر والطاعة .

وأمور الحكم والسياسة من القضايا الاجتهادية، وبالتالي يقع فيها الاختلاف في وجهات النظر، إلا أنه يجب أن يكون هناك قواسم مشتركة نقف عندها جميعاً .

وقد منع علماء الإسلام الخروج على إمام ما لم يخالف شرطاً من شروط تولي الإمامة، أو يرتكب أمراً يطعن في استحقاقه للإمامة.

وأنا أرى عدم منازعة الحاكم أمره ما لم نر منه كفراً بواحاً عندنا فيه من الله برهان.

أما الحاكم الكافر والأجنبي المحتل الغاصب فعلى أفراد الأمة وجماعاتها أن تعمل بكل جهدها على خلعه وقلعه.

أما الخلاف بين أفراد الأمة فالواجب تبصيرهم بأحكام الشرع، وما يلزمهم من واجبات تجاه بعضهم بعضاً، وإن لزم الأمر تدخل سلطة الدولة لفض مثل هذا الاختلاف حتى لا تستشري ويقوى أمرها، ويزيد شرها فتعرض الأمة للخطر والهلاك، إن تدخل الدولة واجب

يتحتم عليها، حفاظاً على مقدرات الأمة ووحدتها، وحفاظاً عليها من الهلاك.

أما إن كان الخلاف بين الجماعة الإسلامية، فالواجب بيانه أن الوحدة ألزم لهذه الجماعات ما دام الهدف واحد، ثم إن مجال العمل واسعة، ولا يجوز أن تضيق على غيرنا، وأن الدين والوطن والأمة بحاجة إلى كل السواعد، وإلى إخلاص المخلصين وعمل العاملين، وواجب علينا أن نعمل بالقاعدة التي تقول نعمل فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا حوله.

## أهمية الأخذ بوسائل الوقاية من الخلاف:

**يقول الدكتور زيدان:** والأخذ بوسائل الوقاية من الخلاف يجعل الأمة بعيدة عن الاختلاف المذموم الذي يفرقها ويوقع الخصام فيها، وإن وقع الخلاف أمكن معالجته وحسمه وسد المنافذ في وجوه المخالفين سيئي النية[1].

[1] زيدان: السنن الإلهية، ص103.

# المبحث السادس

# مواصفات ومميزات السنن الإلهية

للسنن الإلهية مميزات وصفات تتصف وتتميز بها عن غيرها، وهذه الصفات والمميزات ثابتة للسنن لا تغادرها أبداً، ومن هذه الصفات والمميزات: **الصدق، العدل، العلو والرفعة، القول الفصل.**

**أولاً: الصدق:** قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً** ﴾ (النساء / 87)، وقال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً** ﴾ (النساء / 122)، إنه صدق لأن الله لا يخلف وعده ووعيده في المكذبين والظالمين والكافرين، ولا في الطائعين والمصدقين والمؤمنين.

لقد رأينا كيف أن سنن الله تمضي لا يحابي أحداً، ولا تميز بين أبيض ولا أسود، ولا غني ولا فقير، ولا قوي ولا ضعيف.

قال الله لنبيه محمداً: ﴿ **إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ** ﴾ (القصص / 85)، وتمضي الأيام والسنون، وإذا بالنبي يعود إلى مكة منتصراً فاتحاً، بعد أن خرج منها مهاجراً مكرهاً، فصدق وعد الله وصدقت سننه في العالمين.

وحياة النبي صلى الله عليه وسلّم، وحياة إخوانه الرسل والأنبياء مليئة بالصور المشرقة على صدق وعد الله، وصدق سننه.

**ثانياً: العدل:** حينما ننظر إلى سنن الله في خلقه وفي كونه العظيم، نرى كم هي عادلة هذه السنن، ﴿ **وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾ (الكهف / 49)، فسنن الله تتصف بالعدل التام، فلا تميل إلى جانب ضد جانب، ولا تحابي أحداً حاكماً أم محكوماً، مؤمناً أم كافراً، فالكل سواسية أمام هذه السنن، لكننا إذا نظرنا إلى قوانين البشر، كم نرى فيها من ظلم وجو، وميل عن الحق والحقيقة.

**ثالثاً: العلو والرفعة:** قال تعالى: ﴿**وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (التوبة / 40)، فسنن الله العادلة هي الظاهرة والعالية فوق كل القوى والقوانين، وهي الكلمة النافذة بتمامها، لا تعترضها، أي موانع أو حواجز، بهذا استحقت أن تكون عالية ونافذة.

لهذا كل من استظل بنور الإيمان كان قوياً: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ (آل عمران / 139).

**رابعاً: القول الفصل:** قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ**﴾ (الطارق / 13-14).

**يقول سيد قطب:** يقسم الله بهذين الكائنين وهذين الحديثين: السماء ذات الرجع، والأرض ذات الصدع، حيث يوقع مشهدهما وإيحاؤهما كما يوحي جرس التعبير ذاته بالشدة والنفاذ والجزم، يقسم بأن هذا القول الذي يقرر الرجعة والابتلاء، أو بأن هذا القرآن عامة

هو القول الفصل الذي لا يتلبس به الهزل، القول الفصل الذي ينهي كل قول وكل جدل، وكل شك وكل ريب[1] .

وبما أن سنن الله في الكون والإنسان قرآنية فهي تتسم بسماته وتتصف بصفاته، فكما أن القرآن القول الفصل، فكذلك سنن الله القول الفصل.

سنن الله القول الفصل بين الحق والباطل.

سنن الله القول الفصل بين الكفر والإيمان.

سنن الله القول الفصل بين المتقين والظالمين.

سنن الله القول الفصل بين العدل والظلم.

إنها الكلمات القاطعات والفاصلات التي لا يبقى بعدها غبش ولا لبس ولا شكوك ولا حيرة.

---

[1] قطب: في ظلال القرآن، 1656/3.

وفي النهاية يرفع الله راية الإيمان والمؤمنين، ويخزي ويذل الشرك والمشركين.

**والحمد لله رب العالمين**

# الخاتمة

بعد ما انتهيت بحمد الله من دراستي عن السنن الإلهية وأثرها في بناء الحضارة الإنسانية، وبعد ما تناولت في دراستي تعريف السنن الإلهية، والفرق بين الإلهية والكونية والسنن الاجتماعية،

وبعد ما بينت خصائص هذه السنن ومميزاتها وأنواعها، انتهيت إلى النتائج التالية:

1. أن السنن الإلهية هي القوانين التي جعلها الله تعالى في تبدل أحوال الناس وأمور معاشهم، تغييراً إلى الأحسن، أو الأسوأ.
2. اهتمام القرآن الكريم بالحديث عن السنن الإلهية والكونية.
3. ورود هذه السنن في القرآن ضمن القصص والأمثال، والأمثال، والآيات الآمرة بالسير والتفكير فيما حدث للأمم السابقة.

4. حجية هذه السنن ثابتة لكثرة ورودها في القرآن، والأمر المتكرر بالانتفاع بها .

5. كون هذه السنن ربانية، خاضعة لله تعالى دون غيره .

6. أن سنن الله ثابتة عامة مطردة.

7. أن هذه السنن تتكرر كلما وجدت الظروف المناسبة لها مكاناً وزماناً .

8. أن سنن الله تعالى في النهضة والعمران لا تحابي ولا تجامل، الأمم والشعوب والأفراد أمامها واحد، لا تفرق بين مؤمن ولا كافر .

9. نفس الأمر في سنن الله تعالى في هلاك ودمار الشعوب والأمم والعمران .

10 . المؤمنون أولى الناس بدراسة سنن الله تعالى الإلهية الكونية والاجتماعية وذلك للتعرف عليها والعمل على لاستفادة منها أو تجنبها .

11 . خطورة جهل الناس وخصوصاً أهل العلم بهذه السنن .

12 . العلاقة المتينة والمترابطة بين السنن الإلهية والسنن الكونية .

# المــراجع

القرآن الكريم.

1. ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم –جامع الرسائل –دار الكتب العلمية – بيروت –الأولى –1983.
2. ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم –اقتضاء الصراط المستقيم - دار الكتاب العربي –بيروت –1407 هـ.
3. ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم –مجموعة الفتاوى –دار ابن حزم – الرياض –الثانية.
4. ابن حنبل: أحمد –المسند –دار الحديث –القاهرة –الأولى – 1995.
5. ابن رجب: عبد الرحمن بن أحمد –جامع العلوم والحكم –مؤسسة الكتب الثقافية –الثانية –القاهرة –1990
6. ابن كثير: إسماعيل –تفسير القرآن العظيم –دار الأندلس للنشر – بيروت –الأولى –1385هـ.

7. ابن ماجه: محمد بن يزيد –السنن –المكتبة العلمية –بيروت –الأولى.

8. ابن منظور: محمد بن مكرم –لسان العرب –دار الجيل –بيروت –الأولى –1988.

9. أبو البقاء الكفوي: أيوب –الكليات –مؤسسة الرسالة –بيروت –الأولى –1992.

10. البيهقي: أحمد بن الحسين –شعب الإيمان – دار الكتب العلمية –بيروت –الأولى –1410هـ.

11. الألوسي : علي بن محمد –تفسير روح المعاني –دار التراث –القاهرة .

12. الآمدي: علي –الأحكام في أصول الأحكام –مكتبة علي جبيح –القاهرة –1968

13. المحزون: د. محمد –سنة التغيير –مقالة –شبكة كافور –الشبكة العنكبوتية.

14. الباشا: محمد –الكافي –شركة المطبوعات للتوزيع –بيروت –الأولى –1992.

15. البخاري: محمد بن إسماعيل –الصحيح –المكتبة العصرية –بيروت –الأولى –1997

16. الترمذي: أبو عيسى بن سورة –السنن –المكتبة السلفية –المدينة المنورة –الأولى.

17. الحاشدي: عبد الله –السنن الإلهية في تغيير حال الأمة –منبر علماء العين –مقال –الشبكة العنكبوتية.

18. الخطيب: شريف –السنن الإلهية في الحياة الإنسانية –مكتبة الرشد –الرياض –الأولى –2004.

19. الرازي: محمد ضياء الدين –التفسير الكبير –دار الكتب العلمية –بيروت –الأولى –1421هـ.

20. رضا: محمد رشيد –تفسير المنار –دار المعرفة –بيروت –الثانية.

21. زكي: رمضان –مفهوم السنن الربانية –شبكة الألوكة الإلكترونية.

22. زيدان: عبد الكريم –السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية –مؤسسة الرسالة –بيروت –الثالثة –1998.

23. السباعي: مصطفى –السنة ومكانتها في التشريع –المكتب الإسلامي –بيروت –الرابعة –1985.

24. الطبرسي: أحمد بن علي –التاج الجامع للأصول - دار الكتاب العربي –بيروت –1378هـ.

25. الطبري: محمد بن أحمد –جامع البيان عن تأويل آي القرآن –دار المعارف –القاهرة –الأولى.

26. العسقلاني: ابن حجر –فتح الباري –دار الفكر –بيروت – 1995.

27. العقل: ناصر عبد الكريم –مفهوم أهل السنة والجماعة –دار الوطن للنشر –الرياض –1412هـ.

28. الغلبزوني: توفيق –السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم –كلية أصول الدين –جامعة القرويين –المغرب –مقال –موقع مجالس الطريق إلى الجنة –الشبكة العنكبوتية.

29. القاسمي: محمد جمال الدين –قواعد التحديث –دار الكتب العلمية –بيروت –الأولى –1992.

30. قطب: سيد –في ظلال القرآن –دار الشروق –القاهرة –السابعة – 1978.

31. مسلم: ابن حجاج –الصحيح –دار السلام –القاهرة –الثالثة – 1996.

32. المغربي: أيمن –السنن الإلهية في تغيير المجتمعات –رسالة الماجستير – جامعة أم القرى –السعودية –1427هـ.

# كشف مؤلفات الأستاذ حسني العطار

**داعياً الله أن ينفع بها وأن تكون في ميزان حسناته ومن له حق وفضل عليه:**

**أولاً. الدراسات القرآنية:**

١. من آيات الإعجاز في القرآن الكريم (دراسة).

٢. الاستهزاء والسخرية في ضوء القرآن الكريم. (دراسة). طبع

٣. الحوار في القرآن الكريم: دراسة ونموذجاً. (دراسة). طبع

٤. قيم تربوية مستنبطة من قصص سورة الكهف. (دراسة).

5. الرازي ومنهجه في التفسير وموقفه من اليهود. (دراسة).

**ثانياً. علوم الحديث ومصطلحه:**

٦. قضايا حديثية. (دراسة).

٧. دراسات حديثية تحليلية معاصرة. (دراسة).

٨. قطوف ومختصرات من علم أصول الحديث.

٩. إرشاد الأبرار إلى تخريج أحاديث المختار. (مساق أكاديمي).

١٠. مفتاح كتاب تحفة الأشراف للإمام المزّي

**ثالثاً. دراسات في العقيدة والفكر:**

١١. يوم القيامة بين التأصيل الديني والعقلي. (دراسة).

١٢. المختصر المفيد لأشراط الساعة وأحداث يوم الوعيد.

13. نظرية الخلافة عند الخوارج. (دراسة). طبع

14. أثر العقيدة الإيمانية على الصحة النفسية. (دراسة).

15. عقيدة المهدي المنتظر عند الشيعة: عرض ونقد. (دراسة)

16. السنن الإلهية: وحركة النهضة الإنسانية – دراسة وعرض. (دراسة).

17. نظرية الفضيلة عند اليونان والمفكرين الإسلاميين. (دراسة).

18. البابية والبهائية: ضلال وإضلال. (دراسة).

19. شرع من قبلنا (دراسة).

20. الوالدان: بين البر والعقوق. (دراسة).

21. نظرات سريعة في كتاب " قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة " (اختصار).

22. مختصر لكتاب "التوسل أنواعه وأحكامه" للشيخ ناصر الدين الألباني.

23. مختصر لكتاب "الروح" لابن قيم الجوزية.

24. تلخيص كتاب شفاء العليل في القضاء والقدر لابن قيم.

25. مختصر لكتاب "منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد " لعثمان علي حسن.

26. العقائد اليهودية فساد وإفساد دراسة ونقض. (دراسة).
27. العقائد النصرانية ضلال وإضلال دراسة ونقض. (دراسة).
28. دراسة وتحليل لسفر أخبار الأيام الثاني. (دراسة).
29. نظرية الإمامة عند الشيعة. (دراسة). طبع
30. الفرق بين الجهاد والإرهاب. (دراسة).
31. أهم أسباب تخلف العرب والمسلمين. (دراسة). طبع
32. الدكتور مصطفى محمود: آراؤه الاعتقادية وموقفه من المذاهب الفكرية والملل المعاصرة (رسالة ماجستير).
33. مصطفى محمود حياته وآراؤه الاعتقادية. (دراسة). طبع
34. مصطفى محمود حياته وموقفه من المذاهب الفكرية المعاصرة. (دراسة). طبع
35. رمضانيات مقالات وذكريات. (مجموعة مقالات). طبع
36. عطاريات: مقالات في الدين والحياة. (مجموعة مقالات).
37. قيمنا الأخلاقية بين الأهمية والحاجة. (دراسة). طبع
38. الأخلاق بين الادعاء والالتزام. (دراسة). طبع
39. قضايا دينية وفكرية. مقالات.
40. فيس بوك صائم. طبع
41. في عيونهم.

**رابعاً. دراسات فلسطينية:**

42. مدينة القدس، والمسجد الأقصى: ماضٍ مجيد ومستقبل موعود. (دراسة). طبع
43. فلسطين: نقض مزاعم الكتاب المقدس. (دراسة). طبع
44. فضائل فلسطين وبيت المقدس في الكتاب والسنة. (دراسة). طبع
45. القضية الفلسطينية: رؤية إسلامية. (دراسة). طبع
46. القدس بين التهديد والتهويد. (محاضرات ومقالات). طبع
47. مدينة القدس أخطار لا تتوقف. محاضرة

**خامساً. دراسات أدبية:**

48. عبد الرحمن بارود: شاعر المقاومة ـ (دراسة نقدية). طبع
49. عاشق فلسطين: عبد الكريم الكرمي (دراسة).
50. الشيخ رجب العطار ذاكرة أمة. (مذكرات). طبع
51. الشيخ رجب العطار مجاهداً. (دراسة). طبع
52. طوبى للغرباء: قصة حياة الحاج موسى برهوم. مقالات. طبع
53. صعوبة المطالب في بلاد الله غالب. رواية. طبع
54. شخصيات عرفتهم. مقالات.
55. العطار في بلاد المختار. رواية. طبع

56. حكاية مواطن غزاوي. حكاية. طبع

57. بين الذكريات. ثلاثة أجزاء مقالات. طبع

58. أمي سلام عليك في الخالدين. طبع

59. قصص وحكايات.

60. شاميات. حكاية من حلقات طبع

61. أبي قصة حياة. طبع

**سادساً. دراسات فقهية:**

62. الدية في الشريعة الإسلامية (دراسة فقهية).

63. الوديعة المصرفية: دراسة فقهية – اقتصادية. (دراسة).

64. الانتخابات وأحكامها في الإسلام. (دراسة). طبع

65. حقوق المرأة المالية في الإسلام. (دراسة فقهية).

66. دية المرأة المسلمة في الشريعة الإسلامية. (دراسة فقهية).

67. الخنزير: أخطاره وأحكامه (دراسة مقارنة).

68. السماحة الإسلامية في الضرورة الشرعية. (دراسة).

69. قضايا اجتماعية. مقالات

70. الصوم وتهذيب النفس. دراسة. طبع

71. تلخيص كتاب الاختلافات العلمية.

72. كورونا بين المحنة والمنحة. طبع

73. لو سمحت لحظة من فضلك.

**سابعاً. في الفكر السياسي:**

74. إسرائيليات. طبع
75. مستقبل الصراع الإسلامي الصهيوني من خلال كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون". (دراسة). طبع
76. الماسونية: أخطر الجمعيات السرية. (دراسة) طبع
77. فلسطينيات مقالات في الوطن والقضية. مجموعة مقالات.
78. مصر وقطاع غزة الأرض والسكان. مقالات طبع
79. انعكاسات حرب ٢٠٠٨م على المجتمع الفلسطيني والمجتمع الإسرائيلي. (دراسة تحليلية).
80. مصر التي في خاطري. (مقالات ومنشورات) طبع
81. أوراق عربية. (مقالات). طبع
82. تلخيص كتاب د. موسى أبو مرزوق مشوار حياة.
83. الجزيرة العربية قبل الإسلام: الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية. (دراسة)
84. أوسلو وخيبة الأمل الفلسطينية. مقالات. طبع
85. أنا والسلطة والوطن. مقالات.
86. ثورات الربيع العربي وحكم الخروج على الحكام (دراسة). طبع
87. هموم كاتب ما بعد الهزيمة. طبع

88. رثائيات.
89. بين الخير والشر. تأملات فلسفية واجتماعية. طبع
90. الزمن الجميل. رواية
91. سهام الغرب نحو الإسلام والمسلمين. طبع
92. الإخوان المسلمون: شهادتي لله والتاريخ. طبع
93. الإيمان وأثره في الأمن المجتمعي. دراسة. طبع

**كتب تحت الإنجاز:**

1. الشوق والحنين. سيرة ذاتية.
2. أنا والمسجد الأقصى.

# المحتويات


المقدمة........................................................... 1
المبحث الأول: حقيقة السُنن الإلهية................................. 9
المبحث الثاني: أهمية دراسة السنن الإلهية......................... 21
المبحث الثالث: خصائص السنة الإلهية والكونية................29
المبحث الرابع: أنواع السنن الإلهية في قيام النهضة والعمران45
المبحث الخامس: سنن الله في دمار الحضارات واندثارها..... 75
المبحث السادس: مواصفات ومميزات السنن الإلهية ......... 107
الخاتمة........................................................... 112
المــراجع.......................................................... 115
كشف مؤلفات الأستاذ حسني **العطار**............................. 120


تم بحمد الله